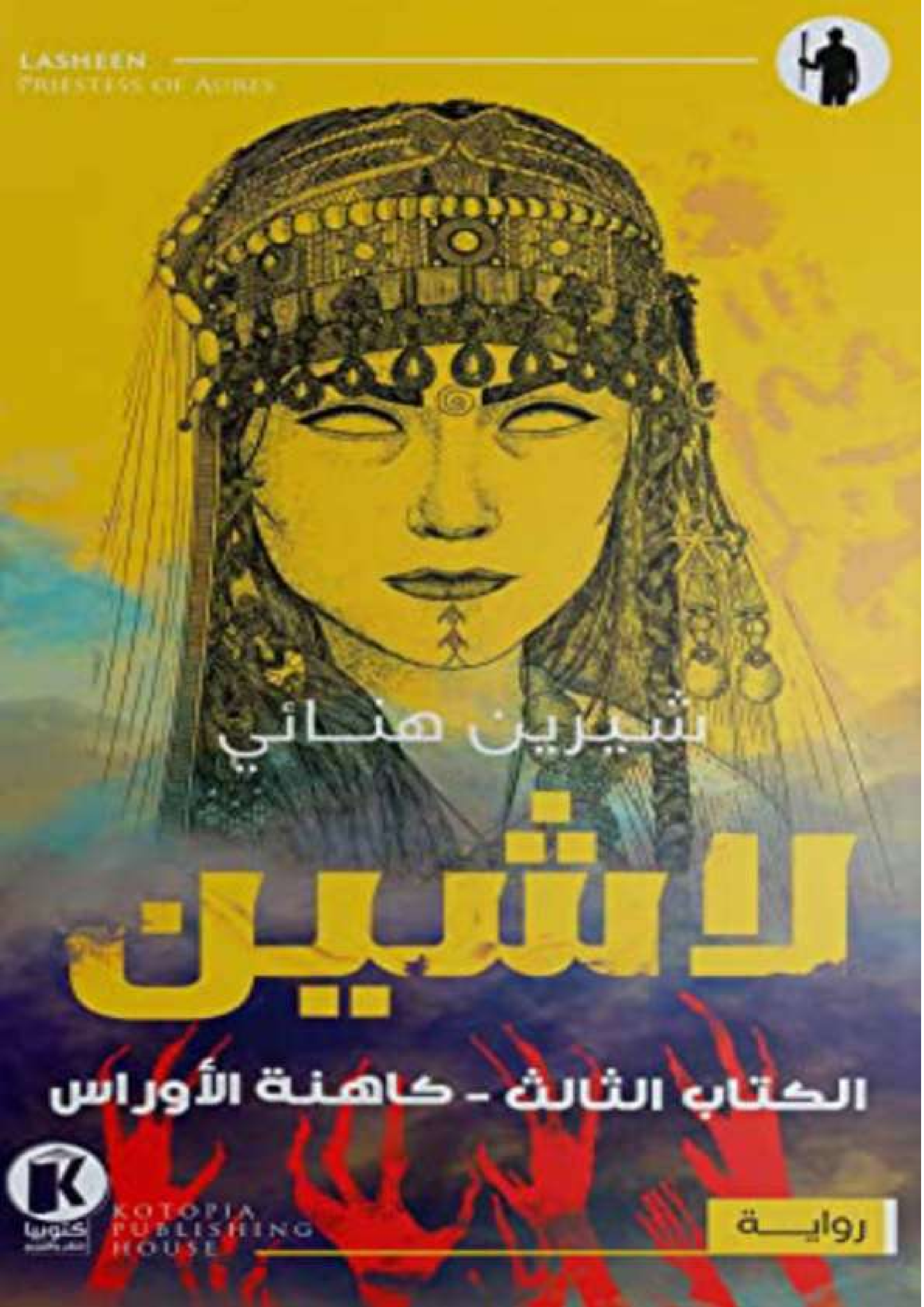


LASHEEN
PRIESTESS OF AURES
شيرين هنائي
لاشين
الكتاب الثالث - كاهنة الأوراس
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE
رواية

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها. إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما اصبحت عليه.

اي لاشين آخر لا يعوّل عليه، سواء كان من عائلة الدجّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشين آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببت فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الامر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا متأخرا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعل بشري أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

***

في الكتابين السابقين، حكيت لكم – وفاءً لوعدي وإشفاقا عليكم فقط- رحلتي التي فقدت فيها أخي أنيس وأمي بسبب العهد الموزث من أبي الساحر لاشين. اضطررت للبحث عن طريقة للانتقام ممن قتلوهما، فوجدت نفسي تارة أضحي بحياتي فأعيش رغما عني، وتارة أبحث عن الموت فلا أجده.

لكنني تعلمت، وعرفت طريقة أهضم بها طاقة الشياطين وأحتفظ بها في جسدي، وها أنا أترنح فوق الحافة بين الآدمية والشيطانية.

اضطهدني أهل قريتي طفلا، وحاولوا حرقي شابًا، فلم يعد أمامي سوى

ترك كل ماضيّ والسعي خلف الانتقام ومعرفة سبب اللعنة التي حلت بي دونًا عن باقي السحرة والدجالين.

في نهاية عام ٢٠٠٦ توجهت إلى حيث تسكن ديهيا. في مكان منعزل جنوب واحة سيوة. رغم أنني لا أعرف إلى أي معسكر تنتمي، لكنني موقن أنني لن أنضم إلى أي معسكر أيا كان، حتى وإن كانت ديهيا تزعم أنني من أبنائها.

الجزء الأول

الفصل الأول

١٢١٣ ميلاديا.

جنوب فرنسا

لم تنم ماري ليلتها، ولا أيا من الليالي السابقة. أشهر من القلق ونوبات الهلع التي تفيق منها لتجد وجهها مندسا في صدر المربية الشابة آنجيل.

- حلوتي.. ماريتي.. لا تقلقي.. نامي يا حلوة.

تمسح آنجيل عبرة سالت من عينيها وتشيح بوجهها بعيدًا عن عيني ماري الزرقاوين كسماء الصيف.

- أنا أعرف أن ما أراه ليس كابوسا.. أبي وأعمامي يُعذبون.. أمي وخالاتي تُنتهكن.. أنا أراهم وأسمعهم، بل هم أيضًا يسمعونني ويستغيثون بي.

- ماري.. كيف ترينهم وتسمعينهم؟ لا تصدقي أحلامك فتسيطر على يقظتك.

آنجيل تعرف أن ماري ترى وتسمع، تعرف أنها قادر على الشفاء باللمس، وقادرة على الارتفاع على الأرض والسير فوق الماء. آنجيل كأغلب الكاثاريين تؤمن بان ماري من نسل شديد القداسة. وعليها حمايتها بروحها.

ابتعدت ماري عن صدر المربية وتمددت على الفراش الخشن الذي لم يعتدد جسدها الناعم الطري. راحت تنظر إلى سقف القبو الرطب المقبض وتحاول ألا تفكر في الكارثة التي لحقت بعائلتها وعائلات النبلاء من الكاثاريين.

يقولون أن البابا إنسنت الثالث أمر بإبادتهم لانهم مهرطقون. يقولون أن

البابا لم يأمر بهذا، فقط طالب باستجوابهم دفاعا عن الإيمان المسيحي الحق من معتقداتهم الفاسدة. لكن الذين نفذوا أوامر البابا تحمسوا لإراقة الدماء.. تحمسوا للانتقام بسبب أمور سياسية وتسويات قديمة.. تحمسوا بسبب التعصب الديني. تحمسوا ليستولوا على ثروات نبلاء الكاثار.. تحمسوا لنيل صكوك الجنة.. او هم تحمسوا فقط لأنهم يكرهون السحرة.

سمعت ماري باب القبو يفتح ببطء، واطل انطون برأسه الأصلع ولحيته الشقراء ناظرا نحوها، ثم قال لانجيل:

- نعتقد انهم سيعرفون مكاننا قريبا. علينا التحرك الآن. كل شيء جاهز. هيا..

قامت أنجيل تتعثر في تنورتها الطويلة، تجمع حاجيات ماري البسيطة في صندوق خشبي مزدان بنقش الصليب الكثاري. نظر أنطون إلى الصندوق، ثم أخرج من جيبه مفتاحا ضخما دسه تحت الصليب الذهبي، وحركه بقوة حتى خلعه وهو يتمتم:

- ليسامحني الرب..

قامت ماري المراهقة الغاضبة تصيح فيه:

- أي رب يا أنطون؟ كيف يعتبروننا هراطقة وكيف فرقوا بيننا وبين الذين يعتبرونهم مسيحيين مؤمنين؟ ألم يقل البابا: اقتلوهم جميعا، فالرب يعرف المؤمنين به؟ ألم يأمر بقتل كل سكان الجنوب بلا تفرقة؟ فعن أي رب تتحدث؟

- بنيتي.. لا أعرف ان كان البابا قد أمر بقتل الجميع، لكنني اعرف أن إبادتنا في مصلحة أي طامع او عدو سياسي أو متعصب ديني. اهدأي يا بنيتي، فلو أن البابا قد قال هذا، فأنا معه.. الله يعرف المؤمنين ويعرف الهراطقة.

- لا يعنيني أن يعرف الرب أو أن يكافئ من ماتوا ظلما. لا يوجد شيء في

الأرض ولا في السماء يعوضني عن موت أهلي جميعا بعد عذاب مهين.

صاحت آنجيل:

- حاذري يا بنيتي.. قد يوقعك كلامك هذا في الكفر.

- ومن قال إنني أؤمن بما يؤمنون هم أو تؤمنون أنتم به؟ منذ رأيت أمي وخالاتي وعماتي يسقن كالنعاج عرايا في شوارع المدينة، يقذفهن الناس بالحجارة حتى وصلن إلى محاكم مزعومة ما هي إلا حجرات تعذيب سادي.. منذ رأيت أبي وأعمامي وأخوالي يُلقون في النيران مكبلين بالحديد، وأنا أكفر بكل شيء.

- ماري!

صدح صوت ماري في القبو وراح يتردد للأبد:

- أنا أكفر بكل شيء في السماء أو في الأرض.

*****

الفصل الثاني

٢٠٠٦- جنوب سيوة

أتبع في سيري النجم الراقص، فكما تذكرون، عصا أبي لم تكن على هيئة حية، بل زاحف مُجنح بشع مرصع بجواهر تمثل نجوم كوكبة التنين.

لا أعرف إلامَ ستقودني رحلتي، لكنني عرفت أنني في الاتجاه الصحيح حين كف الشيطان ذو الرمح حارس العهد عن الظهور لي، وحين صمتت الشياطين بداخلي في ترقب.

أنا قادم يا ديهيا، لكنني لا أعرف حتى الآن إن كنت سأصبح ابنا بارًا لك.

***

الصحراء تمتد حولي في الجهات الأربع، وأظنني لن أبالغ إن قلت أنها

تمتد لتغطي السماء ذاتها. كل شيء يذكّرني بالحلم الغريب الذي رأيت فيه الشيخ طاهر، حين قال لي فزِعًا:

- ما كان لك أن تكون يا آدم لاشين.. ما كان لك أن تكون..

الجو قارس البرودة، أغطي لحيتي الشعثاء وأنفي، وأعلق حقيبتي على ظهري، ثم أترجل سائرًا نحو حدود الرمال العادية، والتي رأيت الأرض من بعدها تتخذ شكلًا أغرب.

أسترجع الحلم.. أنظر إلى السماء علّني أرى عينيها الزرقاوين مرة أخرى. أسير نحو الرمال غريبة الشكل وأنا ألقي نحوها حجرًا. استقر الأخير على سطحها ولم يغطس بين حبيباتها الناعمة. إذًا هي ليست رمالًا متحركة.

أسمع صوتها يهمس:

«تعال يا بُني.. فحين يلفظك الداني والقاصي، والسيد والعبد، والكريم والوضيع، سأقبلك أنا يا ابن ديهيا..»

حين وصلت إلى حدود الرمال العادية، تكبّلت خطواتي وصرت عاجزًا عن الحركة في أي اتجاه، وبدأ الدخان الأسود يتصاعد من الأرض حتى وصل ارتفاع مترين تقريبًا.

من خلفه رأيت شابًا لم يبلغ العشرين على الأرجح، أسمر البشرة يرتدي عباءة سماوية مُطرزة بخيوط لامعة، ويغطي رأسه بغطاء مُتصل بالعباءة. ابتسم وهو يتقدم مني ويقول بصوت ثابت هادئ:

- السلام عليك يا سيدي.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. من أنت؟

- الشيخ مهدي أبركان.. ابن ديهيا الأسود.

- هل.. هذه هي أرض ديهيا؟

- لم تكن لتصل إليها ما لم تدعوك هي للحضور يا أخي. أرى أن هناك

مشكلة لا أعرف سببها.

مد يده عبر الدخان الأسود نحوي، لكنه لم يلمسني. كان مدهوشا حائرًا. سألني:

- أنت عاجز عن الحركة؟

- أجل..

- لماذا؟ أعني.. أنت تراني.. ماذا ترى أيضًا؟

- أرى الدخان.. وأرى الرمال غريبة الشكل.

- مد يدك يا أخي عبر الدخان.

مددت يدي، لكن ما أن لمست الستار الأسود حتى صرخت شياطيني وألقتني أرضًا أتلوى من الألم ومن شدة صراخهم.

تراجع مهدي خطوتين إلى الوراء ثم قال قبل أن يعود إلى حيث أتى:

- انتظرني هنا يا أخي.. أعلم أنك لن ترحل، لكن لا تقلق.. لا تقلق..

ظللت مكاني، أشعر تدريجيا بانسحاب الألم، وتهدأ شياطيني داخلي وتهمس لي:

«المكان مُحصن ضد الشياطين يا آدم. لن يُمكنك المرور. السبيل الوحيد لدخول الشياطين هو عبر البوابة في الداخل.»

إن كانت ديهيا تعرفني، فلمَ استدعتني وهي تعرف أنني لن أستطيع العبور؟ أم أنها لا تعرف أنني لم أعد بشريًا بالكامل؟ لأخفي تلك المعلومة فربما بالفعل هي تجهلها.

أخرجت من جيب بنطالي هاتفي المحمول، فوجدته لا يعمل إطلاقًا. شاشته مظلمة كأنه غير مشحون. ساعتي كذلك تدور للخلف وللأمام، كأنها ممسوسة هي الأخرى. اطمأننت إلى وجود عصا أبي ومسبحته مربوطتين إلى جذعي تحت ملابسي الثقيلة، وقمت واقفًا أدقق النظر عبر الدخان،

لأرى مهدي هذا يعود بصحبة حية كوبرا ضخمة سوداء حالكة. انتصبت تنظر إلي من خلف السواد المعلق، فأدركت أنها ليست حية، بل شيء ما لم أر مثله، لكنه ليس ماديا.

دارت الحية في المكان تبتلع الدخان، فيزيد طولها وضخامتها، ثم أخرج مهدي من عباءته عصا قصيرة مكتنزة ملفوفة الطرف، أشار بها نحو الحية فخضعت.

- أخي آدم لاشين، ابن ديهيا.. تفضل.. لا تخف من الراصود.

سرت مع الشاب ذي اللكنة المغربية الواضحة، حتى وصلنا قصرا بالمعنى الحرفي للكلمة. كل شيء أصلي، فاخر، متناغم، راق، لا يمكن أبدا أن تتخيل وجود مكان هكذا وسط الصحراء القاحلة، ولن تتصور وجود هذا الضخامة المخفية بسحر ما بحيث لا يرى بأي شكل من الأشكال، حتى بالأقمار الصناعية.

أخبرني مهدي هذا ونحن واقفان في مدخل القصر، تحيط بنا المرايا بشكل مزعج، فأينما نظرت، أرى انعكاسي ومهدي يحيط بي من كل صوب.

دخلت حسناء سمراء صغيرة السن، قصيرة القامة، ممتلئة القوام، إلى حيث وقفنا، واتجهت نحو مهدي، فأحاط كتفيها بذراعه وضمها إليه وقال:

- هذه زوجتي.. عالية. هذا أخونا، بن ديهيا.. آدم لاشين.

ابتسمت، فلم يعد في وجهها سوى ابتسامة ساحرة تضيء تحت الحلي الذهبية الكثيفة التي تزين رأسها وتتدلى على جبينها. لوهلة لا أعرف سبب شعوري أنني أعرفها، وأنني منجذب إليها، لا كامرأة، بل كابنة. أنا الذي لم أشعر قط بأبوة تجاه أي شخص.

أمسك مهدي كفها المرصع بالحلي هو الآخر، ولمحت أثر دماء عليه. أغلق كفيه حوله للحظات، ثم مسح كفها وأطلق سراحه. أزال غطاء رأسه كاشفا عن شعر فاحم مضفر كالأفارقة، طويل للغاية، ملفوف حول نفسه عند

مؤخرة عنقه.

- أخي آدم.. هذا بيتك.. بيتنا. خلف هذه المرآة باب للحمام. اغتسل كما تشاء وخذ وقتك. ستجدني في انتظارك في القاعة عند نهاية هذا الرواق.

تركني مهدي وزوجته، فاستدرت أفتح الباب المؤدي إلى الحمام. وكأنني عبرت فجوة زمنية إلى عصر قديم حين كانت الحمامات فيه عبارة عن مسبح فاخر مضاء بالشموع، حوله كل أنواع العطور والصابون والمقاعد المذهبة والبخور الأصلي. أين أنا؟ ومن هي ديهيا؟ وماذا تريد مقابل كل هذا الترف؟

اغلقت عيني وسألت شياطيني:

- ماذا يحدث؟ من مهدي وعالية؟ ما أصلهما؟ أين نحن؟

سمعت صوتهم المنتعش لذة إذ يقولون:

- آهٍ يا آدم.. هذه هي الجنة.. أقصى أمل لنا، ولك..

- أريد التفاصيل كلها.

- هنا نتنغم للأبد.. هنا ملجئنا من العبودية.. أطلق سراحنا هنا يا آدم، وعُد بشريا كما كنت. اعمل وتزوج وأنجب.. ليُعد لك أملك في جنة الخلود.

- لم أرَ في غبائكم.. انتم صرتم جزءًا مني للأبد. مفهوم؟ لو كنت أستطيع إطلاق سراحكم لفعلت بعدما قتلتم المرأة البريئة. من هي ديهيا ومن مهدي وزوجته؟

أجابوا في غير حمس:

- هم بشر لا تقلق..

رحت أتحسس الجدران والأرضيات الحجرية الفاخرة. لا أعرف إن كان هناك من يراقبني، ولن أتحرر من ملابسي أو أضع نفسي في موقف ضعف هنا. اكتفيت بالاغتسال دون أن أتعرى بالكامل، وحلقت ذقني واحتفظت

بشعرها كعادتي، ثم استبدلت بملابسي ملابس نظيفة من الحقيبة. لن أستخدم شيئا أو ألمس شيئا هنا. ولن آمن لنفسي أو شياطيني.. إن كانت هنا جنتهم، فهي جحيمي.

*****

الفصل الثالث

١٢١٤ ميلاديا

شمال المغرب

رحلة طويلة قطعتها ماري ورفقتها من الأوفياء لعائلتها النبيلة، والذين قطعوا على انفسهم عهدا بحمايتها كونها من نسل مبارك.

هربت الجماعة الصغيرة متخفين من جنوب فرنسا إلى إسبانيا، ومنها إلى المغرب عبر البحر. حملوا معهم ما استطاعوا أن يخفوه من ذهب وكنوز. تعرضوا للسطو مرات لكن من يحتاج إلى الحماية بينما ماري الغاضبة دومًا معهم؟

هي قادرة على معرفة اقتراب اللصوص قبل وصولهم، قادرة على ترويعهم بالطفو على الماء أو الارتفاع في الهواء، قادرة على التعذيب كما كانت قادرة على الشفاء بلمسة من يديها.

آنجيل ترمق هذا التحول في قلق، وتشعر بأنها مسئولة عنه بشكل ما. سليلة النسل المبارك تخلت عن ايمانها. هل أساءت تربيتها؟ أم أن ما حدث لها ولاهلها من اهوال دفعها للهرطقة؟

***

خرجت آنجيل من الدار البسيطة التي اتخذوها مسكنا لهم في قرية بشمال المغرب، وراحت تبحث بعينيها عن الراهب أنطون حتى وجدته شاردا ينظر إلى سماء الليل في ألم.

- أنطون.. افكر في شيء.

- وأنا أفكر في ملايين الأشياء. ماذا بعد يا آنجيل؟ ها قد هربنا من الجحيم، لكن ماذا بعد؟ ماذا سنفعل بالفتاة؟ كيف ستعيش حياة كهذه؟

- أنا قلقة لسبب آخر يا أخي.. قلقة على روحها. ماري تركت إيمانها. هل يمكننا أن نقيم طقس كونسولامينتم؟

- هل نُعمدها مرة أخرى؟ لا أظن هذا ممكنا يا آنجيل. فلا يُعمَّد المرء إلا عند ولادته وقبل وفاته. وأنت تعرفين ما يحدث خلال هذا الطقس بالذات. أتتذكرين ما حدث عند تعميد بولين؟ حين رآنا أحد العبيد وأبلغ أننا نمارس السحر؟ أليس هذا ما جلب على رأسنا البلاء؟ لا يُعمد الكاثوليك أطفالهم كما يُعمدهم المتطهرون الكاثار.

- ومن سيرانا هنا؟ ماري بحاجة لإنقاذ روحها يا أخي.. ماذا سنخسر؟ يبدو أن ريكس موندي قد استحوذ على جسدها ودنّسه.

- الإله الخبيث لن يقدر على المساس بجسدها المقدس يا آنجيل. ما هي إلا كلمات فارغة تفوهت بها غضبًا مما مر بها، لا أكثر. لا تشغلي بالك بهذا.

- ماذا سنخسر يا أخي؟ ماذا سنخسر؟ لتعرض الأمر على الآخرين، وإن وافقوا، فليس بيننا راهب سواك يقدر على تطهيرها.

***

جلست ماري في فراشها، تلتحف غطاءً خشنًا من صوف الأغنام، ولا تفكر في شيء إلا في أهلها.. في أبيها وأمها وعمها الطبيب ألفونس. كان هو المفضل لديها وهو من علمها فنون العرافة والسحر وصنع الخلطات للتداوي، والتحكم في البرد والضباب، وقراءة النجوم.

تغمض عينيها وتتخيل وجه عمها.. تبحث عنه عبر المسافات..

ترى عمها ألفونس الآن مربوط إلى كرسي خشبي ضخم، يجلس أمامه راهب كاثوليكي شاب، يمسح عن وجه العم السمين الدماء، ويسأله بهدوء:

- سيدي.. أنت تراني لأول مرة، وأعتذر إن كان من قبلي قد أساءوا إليك. أنا هنا امتثالا لما طلبه البابا.. أنا هنا لأحقق معك فيما نُسب إليك. سأسألك وحاول أن تجيبني بصورة دقيقة.

ترى ماري الرجال الآخرين خلف الراهب يتهامسون ويضحكون. ينعتون عمها بالهرطيق الساحر الذي لا نجاة لروحه. يسخرون من الراهب ويهزون ثقته بنفسه وبقضيته.

- سيدي.. زعم أحد العبيد أنكم تمارسون طقس التعميد بشكل يخالف تعاليم الكنيسة، وأن الشخص الذي يُعمّد يتحدث بألسنة مختلفة، وبلغات غير معروفة، مما نستنتج منه أن هذا الطقس يفتح بابًا للتواصل مع الشياطين. هل هذا صحيح؟

يلعق ألفونسو شفتيه، ويقول بصوت مهتز واهن:

- ليس تعميدًا كتعميد الكاثوليك. أجل.. لكنه تعميد لدفع الشيطان عن الأجساد، وتطهيرها من الشر. أليس هذا هو هدف التعميد؟

- ماذا عن تحدث المُعمّدين بلغات مختلفة أثناء الطقس؟

- يتحدثون بلغات مختلفة.. أجل.. هذه هي أرواحهم التي عاشت حيوات سابقة وتناسخت في أجسادهم. تتكلم وتعترف بخطاياها لعلها تتحرر وتعود إلى الرب الخيّر.. إلى الملكوت.

- الرب الخيّر؟ هل تؤمن كباقي الكاثاريين بأن ثمة إلهين؟ إله خبيث خلق العالم المادي وإله خيّر خلق العالم الروحاني؟

- أجل.. والصراع بينهما إلى الأبد على أرواح البشر النقية، التي هي ملائكة حبسها الإله الخبيث في أجساد مادية ليعذبها في مملكته الأرضية.

- هل تقول بأن البشر ملائكة؟

- أجل.. حبسها الإله الشرير في أجساد مادية بعدما أسرها في معركته مع الإله الخيّر، وهي في انتقال مستمر من جسد إلى جسد حتى تتطهر وتعود

إلى السماء.

- سيدي.. هل تمارس السحر، الذي هو اتصال بالقوى الشيطانية؟

- لا يوجد شياطين.. هذه هي قدراتنا التي ولدنا بها. عائلتي ليست من أعوان الشيطان، بل نحن نسل مبارك منحه الإله الخير من قدراته العليا.

نظر الراهب الشاب إلى قدميه في الخفين الرماديين، وقال بصوت هامس:

- سيدي.. هل تؤمن بالله والمسيح والروح القدس، إلها واحدا، وتتخلى عن معتقداتك الفاسدة؟ إن فعلت، فسأفعل ما في وسعي كي تخرج من هنا.

- لن أفعل.. نحن المسيحيون الحق أيها الراهب. لتفعل ما أمرك به رؤسائك. لو أنني ساحر ترافقني الشياطين لهربت. أليس كذلك؟

- دعك من السحر الآن.. إيمانك يا سيدي فاسد، وأنا لا أريد أن أعذبك، إنما فقط واجبي هداك وإعادتك إلى عبادة الرب الواحد والإيمان بالمسيح المُخلّص.

- لقد أديت واجبك. شكرًا لك.

يقوم الراهب ببطء، ويترك الحجرة، تاركًا المجال للآخرين كي يعيدوا الرجل إلى المخلعة، فقد اعترف بكل التفاصيل. وصارت النهاية محتومة.

سمعت ماري ورأت الاعترافات التي سجلوها في دفاترهم، والتي نطقت بها نسوة عائلتها تحت التعذيب والانتهاك بالأسياخ التي دسوها بين أرجلهن كي يمنعوا الشيطان من معاشرتهن! اجبروهن على الاعتراف بالزنا مع الشياطين والقدرة على الطيران، واقتحام البيوت وقتل الأطفال، وقداسات السبت. اعترفت النساء بكل شيء لم يحدث، ولا مجال لحدوثه إلا في الأساطير، وراح المستجوبون يدونون ما قيل على أنه حقائق.

قامت ماري وراحت تضرب رأسها بالحائط كي تمنع نفسها من رؤية ما

يحدث لعمها. كان يصرخ وهو يتمزق، يصرخ حتى تقطعت رئتاه وانفصلت عن حنجرته. مات العم ألفونس الحبيب، آخر من تبقى من عائلتها، وسيحرقون جثته ويذرون رمادها في الهواء.

تهاوت ماري على الأرض وراحت تصرخ وتلعن كل الآلهة الوثنية والسماوية، وكل الشياطين والملائكة والبشر.

اقتحم عليها البيت انجيل واخوها واربعة من الرجال المرافقين، حاولوا تهدئتها، لكنها كانت تدفعهم بعيدًا دون أن يلمسوها. البيت يهتز والأرض تتذبذب. ظلوا يرددون آيات من إنجيل يوحنا وهم يتراجعون خارجين، إلا أنجيل التي ظلت تزحف وتحاول التماسك حتى وصلت إلى ماري، وضمتها بقوة بين ذراعيها، وراحتا تبكيان.

*****

الفصل الرابع

٢٠٠٦ ميلاديًا

جنوب سيوة

قادني مهدي إلى مجلس فسيح، في نهايته البعيدة جلس رجال، أو من بدو لي كرجال. فقد شعرت بشياطيني تهتاج وتتململ، وما رأيت بعيني لم يكن مُتوقعًا بالمرة.

كانوا عشرة، منهم مجموعات تبدو من جنس واحد، ومنهم من لا شبيه له.

على اليمين، ثلاثة كيانات قصيرة القامة للغاية، تعتمر أغطية رأس مكورة خضراء مُصفرة، أما ملامحهم فبيضاء بلا تفاصيل تغوص وسط هالات متجددة من اللهب المخضر. يليهم كيانان أراهما بشرًا، بينما يدركهما عقلي بشكل آخر. فقد كانا رجلين عاديين بلا أفواه أو أنوف، وكان عقلي يُدركهما كفجوتين مُضيئتين. عند المُنتصف، أربع فتيات صغار بارعات الحسن، تضم كل واحدة منهن جناحين صغيرين شفافين حول صدرها، ثم

لدهشتي رأيتهن فتاة واحدة ذات ملامح قاسية خشنة وشعر غجري يصل إلى خصرها. لحظات حتى رأيت موجة عاتية تكاد تغرقني، ورغم يقيني أنها غير حقيقية، لكنني تكومت على نفسي حاميا وجهي. ضحكت قاسية الملامح، لكن الآخرين لم يضحكوا.

في الركن القصي كان ذو الرمح، واقفا في الظلام ينظر نحوي، لا تكاد تفرقه عن الظلال من حوله. ثبت عيني عليه، ولم أرحهما إلا حين شعرت بحرارة تقترب من ساقي، وإذا بواحد من الرجال قصار القامة يقف جواري، ويرفع وجهه الملتحي نحوي، ويعقد حاجبيه في اندهاش. شجع تصرفه هذا بعض الأفراد كي يقتربوا مني ويتفحصوني، بينما ظلت الفتاة المتلاعبة في مكانها، تخلق الأوهام وتراقب ردود أفعالي بخفة وتعال.

قال مهدي وهو يشير نحوهم بعصاه القصيرة:

- والآن يا سادتي، ما قولكم فيه؟ أمي ديهيا تنتظر.

سألته:

- تريد رأيهم في أي شيء؟ ولماذا لا تقابلني ديهيا؟

- هذا مجلسها وهؤلاء مستشاروها، وأنت الوحيد.. الأول والأخير من نوعك، ولا بد أن تعرف رأيهم بشأنك. بعضهم يبلغ عمره آلاف الأعوام.. وواحد منهم شهد أول اتصال بالبشر والشياطين.

وأشار بعصاه نحو ذي الرمح الثابت في مكانه. عاد كلّ إلى مقعده، وتبادلوا الهمسات، وأخيرا تحدثوا، فلم أفهم حرفًا ولم تلتقط أذناي أصواتهم. ظل مهدي يسمعهم، دون أن يبادلهم الحديث، ثم قال لي مترجمًا:

- أخي آدم.. هم منقسمون بشأنك. بعضهم يظنك إنسيا ذا قدرات لم يروا مثلها من قبل، وبعضهم موقن أنك شيطان نادر يتلبس جسدًا بشريًا.

- وماذا يرى ذو الرمح؟

- هو لا يكلمني، بل يخاطب أمي ديهيا مباشرة.

- وإلى أي فريق تنتمي الفتاة؟

- موراخيا؟ لا أظن أنك تريد أن تعرف. نصيحة مني يا أخي، تحاشاها.

- أريد مقابلة ديهيا. لا داعي لواجبات الضيافة والتعارف.

- بالتأكيد.

رافقني مهدي إلى سلم ينزل بشكل حلزوني إلى أسفل مسافة تزيد عن العشرين مترًا. كان مضاء بالكامل بمصابيح زيتية. لا أعرف سبب الأجواء القديمة التي يعيشون فيها، لكنني أظن أن تواجد كائنات طاقية بهذه الكثافة هنا يفسد أي مصادر كهرومغناطيسية للطاقة، كما أفسد هذا التواجد هاتفي النقال.

قواعد اللعبة سوف تختلف، ولن أستطيع استخدام حيلي الكهربية هنا للأسف.

***

عند نهاية السلم، وصلنا إلى قاعة واسعة، بدت لأول وهلة خالية تمامًا إلا من أصوات شيطانية لعينة تتردد في أذناي. لاحظ مهدي انزعاجي فسألني في انبهار طفولي:

- أتسمعهم؟

- من؟

- العبيد من الشياطين؟

- لا أعرف عمّ تتحدث.

هز رأسه وابتسم ابتسامة جانبية، غير مقتنع بما قلت. لا زلت فاشلًا في التعامل مع الآخرين، ولا أملك أي مهارات اجتماعية.

تركتني وحدي، فدققت حولي، منصتا لصوت الشياطين المنتشية السعيدة.

تستند إلى الحوائط توابيت معدنية، تقف بشكل أفقي. وأمام كل تابوت حوض حجري منخفض الحافة. الأصوات تصدر من الأحواض.

- يا آدم.. هنا جنتنا.. لو أطلقتنا سترحمنا وسنرحمك.

- لم أعرف أن الشياطين مصابة بضعف الذاكرة.

- ماذا تعني؟

- لو أن في يدي إطلاقكم، لأطلقتكم. لا أستطيع أن أتخيل استكمال باقي حياتي في تذكيركم أننا صرنا كيانًا واحدًا ملعونًا.

عند نهاية القاعة نافذة، تطل على كهف سفلي تتقاطع في فراغه الهوابط والصواعد الملحية كأسنان قرش. وفي المنتصف مساحة مستديرة خالية، عندوها خصيصا لهدف ما.

من خلفي سمعت صوت خطوات متأنية تقترب، ودقات عصا. التفت لأجدها.. ديهيا.. العينان الزرقاوان المضيئتان، الشعر الأبيض المخضب بالحناء الحمراء، الوشم على الخدين والذقن، الحلي الذهبية الكثيفة التي تكاد تخفي ملامحها المسنة.

ابتسمت.. تقدمت أنا خطوتين، ولم أرَ مهدي في الجوار.

- بُني.. آدم لاشين.. مرحبًا بك في بيتك.

الفصل الخامس

١٢١٤ ميلاديا

شمال المغرب.

انقطعت ماري عن الطعام والشراب، وظلت متجمدة في مكانها كالنبات طيلة اليوم. تأكد لانجيل أن الرب الخبيث قد استولى على الفتاة، ولا سبيل لخلاصها إلا بالتعميد مجددا.

اجتمع أنطون ورفاقه من خدم عائلة ماري في كوخ الأول، وأسفر الاجتماع عن موافقة الأغلبية على التعميد الثاني. الجميع في صف آنجيل إلا أخاها الراهب.

لكن، إن حدث مكروه لماري، فسيكون ذنبها على رأسه إن رفض تعميدها. لذا، وجد نفسه ورفقته يقودون الفتاة إلى حجرة صغيرة في الكوخ، ويوصدون نوافذها جيدًا، ثم يبدأون الطقس.

قال أنطون كتعبير أخير عن تشككه فيما سيفعل:

- إخوتي.. الفتاة غير واعية، وكي تصل إلى مرتبة الكمال بالتعميد، عليها أن تدرك نذورها وتقسم أن تحافظ على طهارة عقلها وقلبها وفرجها. كيف أعمدها وهي لا تعي ما أقول؟

تنهدت آنجيل وقالت في تعجُل:

- قلنا لك مرارًا، ما لم ينفعها، لن يضرها!

- بل سيضرها.. سيضرنا جميعًا. نحن نبتدع في طقس ربّاني!

- أنطون.. لو.. لو حدث لها مكروه، فلن أسامحك.. لن نسامحك جميعًا. أنت تعرف كم هي غالية، تعرف أنها من نسل مقدس.

صمت أنطون وهو يمسح وجهه. هو مؤمن، لكنه أيضًا مُتشكك. هل للمسيح أبناء؟ هل ماري من نسل المسيح حقًا؟ شيء في قلبه يُشكك في

الأمر، بينما عقله الذي تربى على العقيدة الكاثارية يؤكد أن للمسيح نسلا، والكاثار هم حرّاسه. نفس ما يؤمن به فرسان المعبد كذلك، ولأسباب كهذه تكرههم الكنيسة الكاثوليكية وتراهم يهددون الدين.

لكنه يحب ماري التي تربت بين يديه، يحبها كابنته لا كابنة نسل مقدس. سيمنحها دمه ويموت في رضا، لكنه لا يرضى أن يؤذيها أو يبتدع ما يحاسبه الرب عليه.

أمسكت أنجيل كفيه ووضعت بينهما الإنجيل، ثم سحبتهما بقوة ووضعتهما فوق رأس ماري الراكعة على ركبتيها.

- ابدأ يا أنطون.. ابدأ.. ما هي إلا تلاوة مقدسة تقرؤها. مم تخاف؟

قال رجل من الرفقة وهو يحمل إليه دلو الماء المقدس:

- هيا يا أنطون.. لو حدث شيء، فلن يسمعنا أحد.

- من قال ذلك؟ أهل القرية لم يطمئنوا لنا بعد. وجودنا مثير للريبة، وهم لن يرفعوا أعينهم عنا إلا بعد سنوات.

- نحن مسيحيون، ونقوم بطقس مسيحي.. ما دخلهم به؟

- الأخبار تنتقل كالنار في الهشيم. المغرب على مرمى حجر من أوروبا، وأغلب من فروا من محاكم التفتيش جاءوا إلى هنا.

- وماذا سيجعلهم يرتابون بنا؟! قوم يمارسون شعائرهم، مثل كل من نزحوا من فرنسا و..

- لكن ليس منهم سحرة.. هؤلاء قوم فروا من الظلم والقتل، ولم يكن منهم سحرة حقيقيون.. هل تفهم؟ ماذا سيحدث لماري لو عمدناها قسرًا؟ ماذا ستفعل بنا؟

ابتلع أنطون ريقه، فأخذ منه رفيقه الإنجيل، ووضعه فوق رأس ماري، وبدأ هو يتلو إنجيل بولس، بينما تصب أنجيل الماء صبًا فوق رأس الفتاة حتى التصقت ملابسها بجسدها. ثم بدأت تبكي.. تبكي وتئنه وتغطي

وجهها بكفيها. وفي لحظة تحول البكاء 'الى ضحكات متقطعة قصيرة، وانخرطت بالحديث في نشوة بلغة لا يعرفونها.

ردذ أنطون القلق:

- هذا ما كنت أخشاه.

قاطعته آنجيل في جفاء:

- هذا متوقع يا أخي.. اخرج من الحجرة لو أردت.

- هذا متوقع.. وهذا بالضبط ما يحرقوننا من أجله. الحديث بلسان مختلف من علامات التلبس الشيطاني عند الكاثوليك، ولا بد أن الحديث تناثر حتى وصل إلى هنا. لو سمعنا أو رآنا أحد..

لم يعبأ أحدهم بقلق أنطون، واستكملوا الطقس الذي استغرق ساعة تقريبًا، ثم انفردت آنجيل بماري تجففها وتبدل ثيابها.

مرت الليلة في سلام، ونامت ماري لأول مرة منذ أشهر.

في الصباح، لم يجدوها في فراشها ولا في أي مكان.

***

في الساحة الصغيرة بين كوخ ماري وآنجيل، وكوخ أنطون والخدم، جلس الجميع لا يقدر أحد منهم على النظر في وجه أخيه. مر يوم كامل ولا أثر لماري.

الليل جاء، وقد أوقن الجميع أنها إما ميتة، أو خطفها أحدهم. لا توجد احتمالات أخرى.

قبيل انتصاف الليل، صرخت آنجيل فجأة وسقطت أرضًا تتشنج. كانت ترى ماري في منزل ما، مقيدة، جوارها رجل ذو ملامح شرقية يقرأ بلغته شيء على كوب ماء ويرشها به، فتصرخ وتعوي وتنادي باسم آنجيل

ماري تعرف أنها قادرة على التواصل مع من تريد، ماري تستغيث.

صرخت آنجيل من بين تشنجاتها:

- ماري.. أين أنت؟

التف حولها الرجال، وحملها أنطون إلى فراشها وهو يسألها:

- ماري؟ أين هي؟ ماذا تريك؟

- ماري.. أحدهم خطفها وقيدها.. ماري..

رأت آنجيل الفتاة ترتفع عن الأرض، والرجل يتراجع وهو بعد جالسا على زدفيه. ترتفع وتصرخ، حتى هرب الرجل من أمامها. بعد لحظات تجمع عدد من الأشخاص عند الباب، حاملين المشاعل، وراحوا يحدقون في المعجزة المخيفة أمامهم.

هبطت ماري تدريجيا، واتسعت ابتسامتها وهي تتحدث بلغة ظنوها لغتها، لكنها لم تكن لغة تعرفها ماري من الأساس.

سارت ببطء نحوهم، فتراجعوا وهم لا ينزلون أعينهم عنها، وما أن خرجوا إلى باحة المنزل، لاذوا بالفرار وتشتتوا كل في اتجاه، حتى أن منهم من ألقى مشعله، فاشتعلت النيران في بعض العشب الجاف لثوان قبل أن تخمد.

نظرت ماري إلى السماء، تقرأ موقعها وتحاول أن تعرف في اتجاه عليها أن تذهب. كانت مقيدة الذراعين، لكنها قادرة على السير.. قادرة على مواجهة أي شخص يقف أمامها. هي الآن واعية، لا كالمرة الأولى في الصباح التي وجدت نفسها في الطرقات فجأة دون أن تعرف كيف خرجت من المنزل.

لكن العودة لدارها لم تكن المشكلة الأكبر، ولن تكون.

الفصل السادس

٢٠٠٦ ميلاديا

جنوب سيوة

قالت ديهيا وهي تجلس على عرشها المصنوع من خشب على هيئة مكعب بلا أي نقوش:

- لك ثأر مع الشياطين، هه؟

- لي ثأر.. أجل.

- ماذا تريد مني يا آدم؟

- المفترض أن أسألك، ماذا تريدين مني أنا؟

- الأم لا تريد من أبنائها سوى البر.

ضحكت، ولم تضحك شياطيني معي. البر؟! هل أبدو لها كابن البارحة؟

- لست أمي يا سيدتي، مع كامل احترامي. وقتي محدود، وأعتقد كذلك أن لديك...

صمتُّ هنيهة أبحث عن وصف لما قد يشغل تلك المرأة، ثم أردفت:

- لديك شئون تديرينها. ماذا تريدين مني؟

هزت رأسها ببطء، فتراقصت الحلي مصدرة صوتًا خافتًا تردد في صمت القاعة وسط تأوهات ونشوات الشياطين.

- أريدك معي.. أنا وأنت، ضد الشياطين. ما قولك؟

- أرى أن لديك من العون ما يكفي وزيادة. حتى أنك نجحت في تجنيد ذي الرمح نفسه.

- لم أجنده، لكن لديه خططًا شخصية يحتاجني لتحقيقها. تبادل منفعة

مع الكثير من الحذر من الطرفين. تعاون بلا أدنى ثقة بيننا. هذه هي حياتي يا بني.

- وهل ستكون هذه حياتي أيضًا معك؟

- يمكنك الوثوق بي.. نحن في نفس المعسكر.

صرخت الشياطين بداخلي:

- آدم..ذو الرمح خلفك.

التفت لأراه يزحف نحوي بحركته المتقطعة المرعبة، ثم ينتصب ويقذف رمحه نحوي. أصرخ.. تصرخ شياطيني..

من خلفه أرى مهدي، والجمع العجيب الذين كانوا بالأعلى يتقدمون مني ويدققون النظر فيّ. شياطيني تشفيني، لكنني أصبح أكثر وهنًا، وأرى بأعينهم الأحواض حولي ملأى بالدماء.

أفقد القدرة على التحكم في جسدي، وأجدني أزحف نحو أقرب حوض، وأرتمي بداخله. الدماء تغطي جسدي، تغمرني تمامًا فأغيب عن الوعي للحظات، ثم أجد مهدي ينتشلني ويلقي بي أمام ديهيا التي نزلت عن عرشها، وراحت تدور حولي.

أشارت لرجل من قصار القامة الذي يتوهجون بنيران خضراء، فاقترب مني ودس قبضته في صدري، عابرًا لحمي وعظامي، ممسكًا قلبي.

نبضي يقل، عضلة قلبي تُشوى، شياطيني تصرخ وتسألني:

- ماذا يحدث يا آدم؟ لماذا يريدون قتلك؟

مرة أخرى، تشفيني الشياطين، لكن بشكل أسرع مما فعلوه مع طعنة ذي الرمح. يرمي مهدي دلوًا من الدماء فوقي، ثم يشير إلى رجل بلا أنف أو فم، يركع جواري ويمد كفيه أمامه من فوقي فيتفجر منهما ضوء مؤلم يخترق لحمي وعظامي ويجمدها في برودته. شياطيني تلعنه وتجاهد كي

تشفيني مما أنا فيه.

دلو الدماء يُسكب فوقي، تتراجع ديهيا خطوة للخلف حتى لا يتلوث حذاؤها المذهب. هل ترتفع قليلاً عن الأرض أم أنها هلاوس الاحتضار.

يمسك مهدي شعري، ويرفع رأسي عنوة، يستل خنجرا فضيا ويسمي الله ويستعين بحوله وقوته، ويذبحني.

كففت عن المقاومة منذ زمن. لو أنني مت، فلن يؤلمني سوى شيء واحد؛ لماذا فعلوا بي ما فعلوا؟ أكان الشيخ طاهر يحذرني من هذا المصير؟

المزيد من الدماء..

المزيد من الاستسلام..

أهمس لشياطيني:

- دعوني أمت، وتحرروا أنتم..

أعرف أن هذا مستحيل، لكنني كنت آمل في نهاية لكل هذا الألم.

تألم يا آدم.. تألم حتى تذكر أنك بشري..

ثم جاءت موراخيا، جاءتني كأمي، برائحتها ودفئها وحنانها. مدت يدها لي، فمددت يدي علها تكون روح أمي جاءت ترافقني إلى الآخرة.. لكنها قبضت على يدي، وثبتت عينيها في عيني، ثم صرخت وبدأ جسدها في التمزق ببطء، لا أستطيع أن أغمض عيني وأنا أراها تتفسخ أمامي، ثم تنفجر وتغطي دماؤها المكان..

ثم تعود موراخيا تنظر إلي، وتتحول إلى أنيس أخي..

أعرف ما ستفعل خالقة الأوهام هذه، ستريني مشهد موت أخي، وهذا عذاب لن أتحمله..

صرخت: - كفى!

لكن أوردة أنيس انتفخت، وانتفخ جسده كأنما يتحلل رميا وهو حي..

- كفى!

قال مهدي:

- موراخيا.. كفى.

لكنها استمرت، طعنة ذي الرمح تصيب قلب أنيس، فيتحول ما حولها إلى رماد ملتهب. أنيس يهمس باسمي قبل أن يموت، ثم ينظر أمامه في غضب وتحدٍ..

أفقت على صوت صفعة، فاختفى أنيس، ورأيت ديهيا تقف أمام موراخيا وتنهرها:

- عندما يقول أخوكِ الأسود كفى، فعليكِ الطاعة. لا تُجبريني على ضربكِ مرة أخرى. لا تُجبريني على ذلك..

يكسو صوت ديهيا نبرة ندم لا تتسق مع ما أراه منها وما فعلته بي. طلبت من مهدي أن يظل معي، ويُخرج الآخرين من القاعة. خرجت هي قبلهم وهي تلملم طرف ثوبها الذي تلوث بالدماء، وتحاول إبعاده عن ملامسة جسدها.

بعد دقائق، خلع مهدي عباءته، وكان يرتدي تحتها قميصًا أبيض اللون وبنطالا من الجينز. تربع جواري ووضع رأسي على فخذه، وبدأ يصب فوقي الماء النقي ويمسح عني الدماء بمنشفة.

- أخي آدم.. سامحني. سامحنا جميعًا. أنت فريد.. أنت الأول وربما تكون الأخير. ستكون على ما يرام يا أخي.

عم الصمت دقائق، حتى دخلت عالية القاعة واتجهت نحونا. مدت كفها نحو مهدي، فقبلها، ثم أخرج خنجره وجرحها جرحًا طوليا، وتركه يقطر الدماء على جسدي.

- أخي.. دماء عالية تُشفي الشياطين. دماء البشر عمومًا تُشفيهم، لكن دماء

البشر الزهوريين تمنحهم قوة فورية تستمر لأعوام.

- الزهوريين؟ أنتم من الزهوريين؟

بالطبع قرأت عن الزهوريين وأنا بعد مراهقة، حين كنت أبحث عن كتب السحر والماورائيات. يقولون ان الزهوريين هم هجين بين الجن والبشر، ويقولون أنهم أطفال استبدلهم الجن بأبنائهم ليعيشوا بيننا. دماؤهم ثمينة، لأجلها ذُبح مئات الأطفال كي يفتحوا المقابر الأثرية أو يقدموها قربانًا للجان لمعرفة أماكن الكنوز.

الزهوريون..

موراخيا صانعة الأوهام.. ذي الرمح.. الكيانات النارية والنورانية الغامضة..

أين أنا؟!

*****

الفصل السابع

١٢١٥ ميلاديا

شمال الجزائر

رحلة طويلة قطعتها رفقة ماري فرارا من صائدي الساحرات، والذين عرفوا عن وجود الفتاة بالطبع، خاصة مع عدم تحكمها بقدراتها بعد التعميد الأخير.

سرت الشائعات ووصلت أوروبا، فانبرت حملة مخصصة لمطاردة مدعية القداسة، الساحرة الرجيمة ماري، سليلة عائلة السحرة الهراطقة.

التوجه إلى الجزائر كان اقتراح أنجيل، فلم يكن ثمة مكان يخبئون فيه الفتاة، إلا مغارة مزعومة في جبال الأوراس. تقول أوراق العم ألفونس ان مغارة عليها رصد تقبع عند النهاية الشرقية للجبل، وقد حدد موقعها

التقريبي حسب خارطة النجوم، لكنها لا تتكشف لأحد إلا في ليلة معينة.

بحسب حسابات المنجم الفقيد، فلن تنجح قافلة ماري الصغيرة في الوصول إلى المغارة في الوقت المحدد. وعليهم إيجاد طريقة للاختباء حتى الموعد في العام التالي. ويظل السؤال، أين المغارة بالتحديد؟

هل سيصعدون الجبل ويبحثون عبر مئات الكيلومترات عن مغارة خفية لا تظهر إلا يوم واحدٍ كل عام؟

لكن الرحيل كان محتوما، فرحلوا.

المال ينقص، وتقسو الحياة عليهم أكثر، لكن ماري غير عابئة بشيء، فقط منهمكة في استكشاف قواها، وإثارة الذعر مُتعمدة، وكأنها تقول للجميع أنها فوق أحكامهم، وفوق أوامرهم ومحاكماتهم.

كانت كشبح غاضب يمثل أهلها الذين عُذبوا وأعدموا وخانهم أصدقاؤهم قبل أعدائهم.

لم تكف أنجيل عن الشعور بالخزي، وبأنها هي الأخرى خانت وصية والد ووالدة وعم ماري. فقدت الفتاة روحها، ولا تعرف المربية الشابة ماذا عليها أن تفعل.

أما أنطون، فالتزم الصمت، ونمت بداخله مخاوف مختلفة. ماذا لو أن السحر حقيقة، والاتصال بالشياطين حقيقة؟ ماذا لو أن حرق السحرة هو السبيل الوحيد لإعادة الناس إلى الدين الصحيح؟

هو لم يفكر قط في اعتناق الكاثوليكية، فهو كاثاري مُحب لفلسفة مذهبه، مؤمنا بالإله الخيّر الذي هو الرب المسيح، والإله الخبيث الذي هو الشيطان. مؤمن أن أرواح البشر ملائكة محبوسة في اجسادٍ مادية.

لكن السحر؟ القدرات غير البشرية التي يتمتع بها آل ماري؟ العلوم الغريبة التي يُتقنها العم ألفونس؟ الأموال الطائلة التي كانوا يمتلكونها؟ هل للشياطين يد في كل هذا؟

استقرت المجموعة في قرية قرب جبال الأوراس، وتولت آنجيل تعلم الأمازيغية وتعليمها لماري. ثم بدأت تحاول إبعاد تفكيرها عن الغضب المكبوت فيها بحكايات سمعتها من الفتيات التي تتعلم منهن الأمازيغية. حكايات عن تاريخ الجزائر، وعن الأساطير الشعبية، وعن قصص الجدات وبطولات الأجداد.

أخفت عنها مخطوطات عمها، وعلمتها الحياكة والرعي والطهي. تدريجيا صارت المرأتان شقيقتين، لا خادمة ومخدومتها. وبدأت ماري في الاندماج في الحياة العادية شيئًا فشيئًا، وهدأت روحها.

لكن ما كان لشخص في قدراتها أن ينجو وسط أمواج الإبادة التي أثارت رغبات الثأر والأطماع، أكثر مما صبت في اتجاه الإصلاح أو محاكمة الهراطقة.

***

جلست ماري تقرأ ما كتبته لها رفيقات آنجيل باللغة الأمازيغية، وهي حكايات من تاريخ الأمازيغ وأبطاله، أحبتها ماري، وذكرتها بقرائتها وهي طفلة عن بطولات النبلاء والفرسان الأوروبيين.

لكن ما لفت نظرها في تلك القصص هي بطلة، امرأة، وقفت في وجه غُزاة بلادها، وكانوا يطلقون عليها لقب: الكاهنة لقدرتها على التنبؤ ورؤية المستقبل. عاشت فوق المائة عام وحكمت من مدينة ماسكولا بالأوراس. نفس المكان الذي تسكنه ماري حاليًا.

ديهيا بنت تابتة بن نيفان بن باورا.

المرأة التي تنتسب إلى أمها وجدتها، البطلة النسوية التي يفتقر إليها تاريخ أوروبا.

توقفت ماري عن القراءة المتعثرة حين تذكرت موقفًا حكته لها آنجيل وأثار في قلبها حنينًا إلى الأمومة. فقد كانت في العشرين وتعرف أنها الآن

استقرت المجموعة في قرية قرب جبال الأوراس، وتولت آنجيل تعلم الأمازيغية وتعليمها لماري. ثم بدأت تحاول إبعاد تفكيرها عن الغضب المكبوت فيها بحكايات سمعتها من الفتيات التي تتعلم منهن الأمازيغية. حكايات عن تاريخ الجزائر، وعن الأساطير الشعبية، وعن قصص الجدات وبطولات الأجداد.

أخفت عنها مخطوطات عمها، وعلمتها الحياكة والرعي والطهي. تدريجيا صارت المرأتان شقيقتين، لا خادمة ومخدومتها. وبدأت ماري في الاندماج في الحياة العادية شيئًا فشيئًا، وهدأت روحها.

لكن ما كان لشخص في قدراتها أن ينجو وسط أمواج الإبادة التي أثارت رغبات الثأر والأطماع، أكثر مما صبت في اتجاه الإصلاح أو محاكمة الهراطقة.

***

جلست ماري تقرأ ما كتبته لها رفيقات آنجيل باللغة الأمازيغية، وهي حكايات من تاريخ الأمازيغ وأبطاله، أحبتها ماري، وذكرتها بقرائتها وهي طفلة عن بطولات النبلاء والفرسان الأوروبيين.

لكن ما لفت نظرها في تلك القصص هي بطلة، امرأة، وقفت في وجه غُزاة بلادها، وكانوا يطلقون عليها لقب: الكاهنة لقدرتها على التنبؤ ورؤية المستقبل. عاشت فوق المائة عام وحكمت من مدينة ماسكولا بالأوراس. نفس المكان الذي تسكنه ماري حاليًا.

ديهيا بنت تابنة بن نيفان بن باورا.

المرأة التي تنتسب إلى أمها وجدتها، البطلة النسوية التي يفتقر إليها تاريخ أوروبا.

توقفت ماري عن القراءة المتعثرة حين تذكرت موقفًا حكته لها آنجيل وأثار في قلبها حنينًا إلى الأمومة. فقد كانت في العشرين وتعرف أنها الآن

تعتبر راهبة في مرتبة كاثارية تمنعها من الزواج إلى الأبد.

حكت لها آنجيل في ليلة سابقة:

- كانت ديهيا قد أسرت ثمانين رجلًا من رجال حسان بن النعمان، وأحسنت إليهم جميعًا حتى أطلقت سراحهم، وحجزت عندها واحدًا منهم فقط؛ خالد بن يزيد. قالت له يومًا: ما رأيت في الرجال أشجع منك، وأنا أريد أن أرضعك لتصير ولدي.

تقلص وجه ماري للفكرة وسألتها:

- ترضعه؟ وهو كبير؟!

- أجل. للبربر عادة إرضاع الكبير، فيكون بين السيدة ومن أرضعته علاقة بنوة رسمية يتوارثون بها. لكنها لم ترضعه حليبًا، بل وضعت مزيجًا من الشعير والزيت على صدرها ودعت ولديها التي أنجبتهما من قبل ليأكلا معه هذا الخليط، فيصير أخًا لهما.

- وصار خالد هذا ابنًا لها؟ أعني.. ابنًا بازًا؟ لقد كان من معسكر أعدائها يا آنجيل.

- للأسف، ظل خالد على ولائه لأبناء جلدته، وجمع المعلومات الدقيقة عن البربر وأرسلها إلى حسان، ونشبت معركة بينه وبين ديهيا، هُزمت فيها الأخيرة.

تذكرت ماري هذا الموقف، وشعرت برغبة عاتية في أن يكون لها أبناء، أوفياء، لا يخونونها ولا يتركونها وحيدة في شيخوختها. لو أن لديهيا قدرة على معرفة المستقبل، هل كانت ستتبنى خالد؟ أم أنها عرفت، لكن رغبة الأمومة فيها غلبت معرفتها بمقتلها بسببه وهي شيخة في عمر المائة وسبع وعشرين عامًا؟

أغلقت كتابها، وقامت لتطفئ المصباح وتصلي صلاة الليل قبل نومها.

ركعت عند الفراش وبدأت في الصلاة على غير اقتناع بما تقول، لكنها

كانت تحاول بصدق أن تنسى غضبها، وكفرها السابق. تحاول أن يكون في حياتها رب يعينها في وحدتها المحتومة في بلاد غريبة.

سمعت صوت خطوات على مبعدة. رأت رجالا قادمين نحو بيتها، وقد يبلغونه عند الفجر. قامت وأيقظت آنجيل، التي هرعت بدورها توقظ الرجال ليشدوا الرحال مرة أخرى.

سأل أنطون ماري:

- من هم يا بنيتي؟

- لا أعرف. ملامحهم أوروبية، وكذا ملابسهم.. يتقدمهم شخص ذو ملامح شرقية.. لكن..

- لكن؟

- هذا الشخص.. لم أر مثله قط. أعني.. هو رجل، لكني لا أشعر أنه رجل حقيقي. لا أعرف يا أنطون كيف أصف لك.

- لا يهم.. لا يهم.. هيا بنا.

***

عند الفجر، رأت ماري أن الرجال قد بلغوا بيتها، ووقف الرجل الغريب أمام المنزل دون أن يدخله. مد يده إلى السماء، فحط عليها غراب، مزقه الرجل بأظفاره، وشرع يحدق إلى أحشائه ويتفحصها، ثم يسير في اتجاه معين، ويتبعه الرجال.

- أنطون.. لا تتوقف، هم في إثرنا!

-وكيف يعرفون مكاننا؟!

- الرجل في مقدمتهم.. عزاف.. يقرأ أحشاء الطير.

نظرت آنجيل حولها وقالت في حزم:

- فلنصعد إلى المغارة. نحن لا نعرف مكانها تحديدًا، ولن تظهر إلا بعد ثلاث وستين يومًا، لكن.. ربما يدرك من بداخلها وجود ماري ويفتح لنا، أو يدلنا على مكانها فنحتمي في مجال الرصد حولها. ما رأيك يا ماري؟

- أرى أن هذا هو الحل الوحيد الممكن. الرجل يمكنه معرفة مكاننا مهما فعلنا. الأمل الوحيد أن نحتمي داخل مجال الرصد. إن سمحوا لنا سحرة المغارة بالطبع، وإلا فمصيرنا محتوم.

*****

الفصل الثامن

٢٠٠٦ ميلاديا

جنوب سيوة

في حجرة نظيفة وفراش وثير، قيدوني، وتوالى علي دخول قس حاول طرد الشياطين مني برش الماء المقدس وتلاوة الصلوات، ثم ربّاي ظل يقرأ من المزامير وينفخ البوق، ثم شامان آسيوي، وساحر إفريقي، وأخيرًا شيخ مسلم. كل حاول بطريقته وإيمانه إخراج شياطيني، وما فلح شيء إلا في تعذيبي لا أكثر.

لكنني لم أمت.. ولم تخرج مني الأبالسة.

اقترب مني مهدي في النهاية وسألني في اهتمام:

- ما أنت؟

أجبت في إنهاكٍ لم أشعر به من قبل في حياتي:

- مسخ.. مسخ لا أكثر.

- أنت كنز. قطعة فنية نادرة يا أخي. لست مسخًا، ولا يمكن أن تطلق على أي من أبناء ديهيا صفة تُقلل منهم. كلنا ذرر نفيسة في عقدها. لكن.. بالفعل

أنا لا أعرف ما أنت.

- لو عرفت، اخبرني.

رحل مهدي بعد أن فك قيودي. وجاء لي أحدهم بطعام وحقيبتي التي سقطت مني في القاعة. كانت ملوثة بالدماء. فأخرجت ما فيها؛ جهاز الحاسوب المتنقل، يبدو أنه معطل كما هو متوقع. لم أجد ملابس أخرى نظيفة، فاضطررت إلى ارتداء الملابس – جلباب أسود وعباءة زرقاء- التي تركها لي مهدي على طرف الفراش. تحسست جسدي فوجدت عصا أبي ومسبحته لا زالتا مربوطتين إلى جذعي، وان غير أحدهم الرباط المتسخ بآخر نظيف.

لفتات إنسانية للغاية مضفورة وسط تصرفات وحشية غير مفسرة.

أين أنا؟ ومن هي ديهيا وماذا تريد مني؟

أكلت، فأنا لم أذق الزاد منذ.. لا أعرف تحديدًا، ربما يوم كامل على الأرجح. اتجهت لباب الحجرة الخشبي وأدرت المقبض، فانفتح. خرجت بحذر أتلفت حولي، باحثًا عن أي شخص قد يكون في الجوار.

سرت عبر الأروقة التي ذكّرتي بأروقة الفنادق؛ الحجرات تصطف على جانب واحدٍ منها، كلها مغلقة ولا يصدر من خلفها أي صوت.

وجدتُ سلمًا فنزلت حتى وجدت نفسي في القاعة إيّاها. ولم يكن بها إنسي أو شيطان. لكنني سمعت أصوات تشبه تلك الصادرة من «شخاليل» الأطفال. اقتربت من النافذة الكبيرة، وأطللت على الكهف ذي الهوابط والصواعد الملحية، فرأيت جمعًا من الرجال البشريين مُتحلقًا داخل الدائرة المُعبدة، يمسك كل منهم كرة تحيطها شبكة معدنية، يهزها فتصدر تلك الأصوات السخيفة التي أصابت أذني بطنين.

ثم رأيت ديهيا تقف وسط الدائرة، تنظر إلى سقف الكهف، ثم تشير لرجل فيأتي بخنزير ضخم فاقد الوعي أو ميت، ويضعه أمام ديهيا، ثم يشعل نارًا في موقد حديدي ويسخن عدة أسياخ عند طرف كل منها دائرة

منقوشة كالختم.

صرت أتلفت خلفي وأحاذر أن يراني أحد من الجمع بالأسفل. من الحمق أن أفكر في الهرب، الحكمة الوحيدة التي يمكنني اكتسابها من وجودي هنا هي المعرفة.

راحت ديهيا تردد عبارات بلغة غريبة، والرجال يرددون خلفها بإيقاع متسارع. الأمر أشبه بحلقات الذكر في الموالد. ثم ضربت بقدمها اليسرى الأرض أمام رأس الخنزير، وسمعت أنا أصوات شياطين جشعة تُعذب، ثم صوتًا لا أعرف كيف أقرِّبه لكم. هو أقرب لصوت دقات قلب عبر مسماع لكنها دقاتٍ شنيعة ترجف جسدي.

تهمس شياطيني:

- شيطان عظيم يعبر.. شيطان من مراتب غلا..

- هذه هي بوابة العبور التي كنتم ستقصدونها لو لم أحبسكم؟

- أجل يا آدم.. هي البوابة. لكن كيف تفتحها دون وجود شيطان من العبيد؟ بل، كيف يعبر شيطان عظيم رغمًا عنه؟

- رغمًا عنه؟ كيف عرفتم؟

- الأصوات التي تسمعها أنت، نفهم نحن معانيها.

- كما تشم الكلاب رائحة الخوف في البشر.

أنا أتعلّم، وهذا ما يهمني.

وضعت ديهيا قدمها اليسرى على رقبة الخنزير المُكتنزة كي توقف ارتجافاته العنيفة، التي ذكّرتني بالجدي الذي حبستُ فيها وأنيس شيطان من مرتبة دُنيا.

تُرى كيف سيحتفظ جسد حيوان بشيطان عظيم دون أن ينفجر كما حدث مع جدينا؟

ناول الرجل ديهيا أحد الأسياخ الملتهبة، فدمغت بها جبين الحيوان الذي راح يصرخ. ثم توالت الدمغات في أنحاء جسده بترتيب معين، بينما تُنشد ديهيا والرجال يرددون.

أخيرًا هدأ الخنزير، وقام منتصبا على قدميه الخلفيتين، فوصل طوله إلى قرابة المترين. ظل على وضعه الغريب ينظر الى ديهيا، وديهيا تنظر إليه. دون أن ترفع عينيها عنه، مدت يدها لمساعدها فناولها طوقًا ذا أشواك موصول بسلسلة سميكة. دون تردد أحاطت رقبة الحيوان بالطوق، فنزل إلى الأرض بعد أن أطلق صرخة ارتج لها الكهف وتساقطت على إثرها شظايا الملح من الهوابط.

صمت الإنشاد، ورحل الرجال في هدوء، وجيء بعرش ديهيا المكعب فاعتلته، ثم أتى مهدي يرفل في عباءة موشاة بالذهب من الحرير الأسود.

جلس الشاب أرضًا جوار ديهيا، وأبقى وجهه تحت ظلال غطاء رأسه. صدى الصوت يحمل كلمات الشاب إليّ إذ يقول:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون ممن يحضر هذا المجلس، السلام عليكم أيها الطوّافون والعاكفون والطيّارون والنورانيون والناريون والغوّاصون من خلق الله. أما بعد..

تعجبت أنه يتحدث الفصحى بالذات، لكنها اللغة التي تتحدث بها ديهيا معي ومع الجميع هنا، ويفهمها الشياطين الذين قابلتهم، وربما الجن كذلك. أظن أن لا حواجز لغوية بين عالم البشر وعوالم الكيانات الطاقية إلا إذا شاءوا هم هذا!

لا زلت ارصد وأتعلم.. ينقصني التجربة لأتأكد..

- نجلس لنتفاوض.. بعد أن أرسلت لكم الملكة ديهيا كتبها بشروط الهدنة بيننا وبين شياطين ديس، لكن ملكهم لم يرد بشرف، واستطعنا أسر قائدة جيشه، أستاروث، ونبادلها بما نراه عدلًا وفي صالح أبناء ديهيا وأبناء الميامين من الغواصين والغمّامين والخطّافين والسبّاقين.

إلهي.. الأمر اكبر مما تصورت. لم أضع في حسباني ان ما قرأته عن الجان قد يكون حقيقيا. ما علاقة كل هذا بي وبابي؟

ديهيا قادرة على فتح بوابات للشياطين وأسرهم. ديهيا في حرب مع أبناء الميامين هؤلاء ضد الشياطين. علام يتعاركون؟ أيريدونني طرفا في هذه الحرب، كوني فريدًا من نوعي. الأول وربما الأخير؟

تراجعت مبتعدًا عن النافذة، فلن أجرّب حظي أكثر من هذا. الواضح أن ديهيا تجمع الفلتات من الإنس والجن والمخلوقات الأخرى، وتضعهم في معسكرها هذا وتدعوهم أبناءها. ما المقابل؟

وما هي خطة ديهيا؟

توقفت فجأة وكدت أتعثر حين رأيت غزالًا لا يشبه أي غزال حقيقي، بل هو من نوعية الغزلان الكرتونية واسعة العينين، تقف على طرف أنفها الفراشات. خلف الغزال رأيت طفلة لا تزيد عن أربعة أعوام، تعدو خلفها وتضحك. ثم تدرك أنها في هذا المكان المقبض، فتقف وتنظر حولها وتتحول الابتسامة على وجهها إلى قلق.

يفتح الغزال باب أحد التوابيت الأفقية بطرف أنفه، فتدخل الفراشة فيه، ويتراقص الغزال فتضحك الفتاة وتقترب منه ومن التابوت، وفي ثوانٍ يدفع الغزال الطفلة بداخله ويغلقه، فأسمع صراخات الطفلة التي لا يعبأ لها الغزال الذي تحول ببساطة إلى موراخيا.

*****

الفصل التاسع

١٢١٥ ميلاديا

شرق جبال الأوراس

يوم كامل مر على ماري ورفقتها دون نوم أو توقف للراحة. الجميع

منهك.. الذواب تكاد تتجمد من البرد والتعب. لكنهم أخيرًا وصلوا إلى حيث موقع المغارة التي كتب عنها العم ألفونس. من المستحيل تحديد مكانها بدقة عن طريق النجوم.

كتب ألفونس أن ثمة شائعات تحيط بالمغارة، غرضها إخفاء مكانها وإضلال الباحثين عنها. فقد انتشرت الأقاويل أنها تظهر للعيان كل تسعة أشهر، وأنها في المغرب لا في شرق الأوراس.. وأنها..

لكن ألفونس قد قابل في رحلاته ساحرًا دخلها وخرج منها بطلسم هائل، أخبره كذلك أن أغلب من يدخل تلك المغارة، لا يخرج منها. فربما يجد أنه قد وهب نفسه للجان لا العكس، أو أنه يُجن، أو يضل، أو ينتقل إلى بُعدٍ آخر إلى الأبد.

كل هذا لم يُخف ماري قدر خوفها من العراف قارئ الأحشاء الذي يتبعها. لا يُبشر منظر رجاله بالخير، فهم مُحملون بالأوتاد الخشبية والأشواك والصلبان والملح والأقفاص الفضية والأقفال المطلسمة. هم في إثرها ويعرفون من هي وما حدود قدراتها. هم ليسوا صائدي سحرة عاديين.

لا زالت ماري ترى من يتبعونها يقتربون في ثقة. ابتعدت عن الجمع خطوات تبكي في صمت. لو أن مكروهًا أصاب هؤلاء الأعزاء الشرفاء، فلن تسامح نفسها إلى الأبد. هؤلاء هم أهلها لا حراسها، يحبونها لأنها هي، لا لكونها كنز أو من نسل مقدس.

عاهدت نفسها من أجلهم ألا تطلق لسحرها وقدراتها العنان. لكن الوضع الحالي لا مفر منه إلا بالسحر.. والسحر فقط.

اقتربت من انطون وهمست له:

- انطون.. عمّدني مرة أخرى.

- ماذا؟

- أخفض صوتك.. عمدني مرة أخرى. أنت رأيت ما أطلقه التعميد من

قدراتي، نحن بحاجة إلى هذه القدرات اليوم. لن ننجو بدونها.

- التعميد ليس لعبة يا بنيتي. هذا لا يصح.

- وأرواحكم ليست لعبة. أنتم أغلى ما أملك ولن أترككم لهم.

- حبيبتي، ربما تستطيعين مواجهتهم كما واجهت قطاع الطرق في طريقنا إلى..

- هؤلاء ليسوا قطاع طرق. ولن يخافوا إن ارتفعت في الهواء كما خاف من اختطفوني من قبل. قائد هذه الجماعة ليس بشريا، أكاد أقسم على هذا.

قام أنطون ونظر حوله إلى الرفاق المنهكين النائمين، فطلبت منه ماري ألا يقلقهم، وليذهب معها إلى مكان مخفي ليعمدها.

- ليس معنا ما يكفي من الماء يا بنيتي. أرى أن..

- انت لا تريد تعميدي.. فهمت.

تركته ماري وجلست محتضنة ركبتيها، تتأرجح أماما وخلفا، وقد قررت الشيء الوحيد الذي قد ينقذهم.

الفرار.

انتظرت حتى غفا أنطون، وتسللت بهدوء مبتعدة، ثم سلكت طريقا صاعدا أخبرها حدسها أنه قد يؤدي إلى مكان أعلى يستطيع مطاردوها أن يصلوا إليها فيه عبر طريق لا يمر على رفاقها، بالاضافة إلى أن أنطون سيظنها هربت هبوطا لا صعودا. ففتاة مدللة مثلها لن تفكر في أن تسلك طريقا خطرا.

لكنه أنطون لا يعرفها جيدا، أو انه يعرف نسخة قديمة منها كانت تسكن القصور وترفل في الحرير.

في نهاية المطاف، تمزقت أطراف فستانها، وخدشت ركبتاها، وتعثرت

مئات المرات، لكنها صارت في أبعد مكان عن رفقتها. لا شيء حولها سوى الظلام والنجوم وعواء رياح الشتاء.

لكنها كذلك كانت ترى أنطون يتبعها، فقد كان يزيف نومه. لكن لماذا تركها ترحل، ولماذا لم يساعدها حين سقطت وتعثرت؟ لماذا يختبئ في زاوية بعيدة عن رؤيتها الآن، ماذا ينتظر؟

أتراه أدرك خطتها وأراد أن يحرسها؟ ألديه خطة بديلة؟!

سرعان ما سمعت خطوات الرجال المنتظمة كالجيش تقترب من موضعها. لا يتعثرون أبدًا، لا يتحدثون مع بعضهم أو مع قائدهم. لا يبدو عليهم أي أثر للعناء.

والآن ترى أولهم، مزرق البشرة، جامد النظرات، وتدرك أنه ليس بشريًا بالكامل. هذه جثة يسكنها شيطان.

سحر النيكرومانسي القديم، حيث يقوم الساحر بإسكان شيطان داخل جثة لم يمر على وفاتها عام، فتقوم من قبرها وتتحرك، ويحكي الشيطان على لسانها ذكريات المتوفى، فيظن الناس أن الساحر قادر على إحياء الموتى.

هذا سحر لم تمارسه عائلتها قط، ولم تكن لتمارسه لو تبقى منها أحدًا. هذا هو الكفر الذي يستحق الإعدام.

انتصبت أمامهم شامخة. لو ماتت فستموت مثل ديهيا، لم يكسرها سوى الخيانة. أما لو عاشت فستعيش مثل حياة ديهيا، منتصرة، قوية، يُجلها أعداؤها ويُبجلها أحباؤها.

صعد الرجل تلو الآخر واصطفوا أمامها، لكن قائدهم لم يظهر بعد. تراه ماري بالأسفل يرسم الطلاسم على الرمال.

بحركات آلية، تقدم منها أربعة رجال شاهرين الأوتاد الخشبية، بينما يستعد خلفهم اثنان بأطواق ذات بروزات حادة تشبه الأشواك، وخلفهم

ينتظرها القفص الفضي ليبتلعها في النهاية.

قبل أن تصرخ وترتفع في الهواء، وتستدعي الضباب ليحجب بينها وبينهم، لمحت شعار نبالة تعرفه على أردية مهاجميها. مفهوم أن تتدخل العائلات الكبرى في مذابح كذه، رغبة في الاستيلاء على الثروات أو المناصب او الاراضي، لكن عائلتها قد أبيدت، فلم يرسل احدهم ساحرا مع جثث متحركة خلفها؟!

ارتفعت أكثر عن الأرض، لكنهم كانوا مستعدين بأقواس رماية على هيئة الصلبان، تستطيع أن تقذفها بالأوتاد مهما ابتعدت.

ظهر أنطون حاملاً سكينه الصغيرة، وراح يشق طريقه وسط الرجال غير المتوقعين تدخلٍ من شيخٍ ضئيل كهذا. نظرت له ماري إذ يقطع شريان رقبته ويتلو صلاة لم تسمعها من قبل، لكنها تعرف ما يفعل جيدا، فقد وصفه العم ألفونس في أوراقه بتعميد الدماء، التضحية القصوى للإله الخبيث ريكس موندي.

الكفر التام.

صرخت:

- أنطون، لا..!

لكن الرجل ظل يحدق إليها ودماؤه تندفق فتغرق ساقيها. والأوتاد تندفع فتصيب جسدها وتدفعه نحو الجدار الصخري.

أنطون قام بطقس محرم في جميع العقائد والأديان، أنطون كان عارفًا بالسحر ولم يتكلم عن هذا قط. ألهذا السبب اختاره أبوها كي يكون مرافقها ومعلمها؟

سقطت ماري إثر الضربات المتتالية. اختلط دمها بدماء أنطون. نظرت إليه وهو مسجى بلا حياة. لماذا يا أنطون؟ لماذا وأنت كنت أحرص الناس على الدين؟

شعرت ماري بنفسها تقوم مرة أخرى بلا سيطرة منها. الضباب يتكاثف حولها، وتسقط من السماء جلاميد الصخر فتشوّي أجساد الرجال الميتة بالأرض، وتفجر الحصى والأحشاء من تحت أرجلها!

مرة أخرى تفقد السيطرة على قدراتها السحرية. ولأول مرة توجه غضبها الكاسح إلى الجبال فيفتتها ويسقطها أمطارًا على المكان كله.

الصخور تضربها وتدميها لكنها لا تموت، ولا تتألم.

استمر الوضع الكابوسي لدقائق، ولم يعد من شيء يتحرك حولها إلا وغطاه الصخر.

ثم رأت الساحر الشيطان يصعد إليها. يبتسم ابتسامة ودودًا ويقول لها كأنها طفلة:

- صغيرتي ماري.. أهكذا تعاملين ضيوفك؟

كان يتحدث وتفهمه دون وسيط. أجابت وقد أخفت وهنها وانفصالها عن الإحساس بجسدها

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- أنا جبر. صديق قديم لكل الأطفال.

- ما أنت؟

- لقد صرتِ آنسة كبيرة، تعرفين أن الكينونة لا تلخص في كلمات. من كان أنطون البائس؟ راهب؟ ساحر؟ زنديق؟ عابد للشيطان؟ مُراء؟ ومن أنت؟ فتاة مقدسة؟ راهبة؟ ساحرة؟ .... أم؟

- ما أنت؟

- جبر.. صديق.. ساحر.. شيطان.. ملاك ساقط.. روح طيبة تحاول المساعدة؟

- مساعدة من؟ أنت تحاول اصطيادي.. من أرسلك؟ وماذا سيفعل بي

حية؟

- تحبين الحكايات يا ماري الصغيرة، هه؟ دائما ما كانت أنجيل تحكي لك الحكايات. لكنها حكاية طويلة، تلك التي تروي ثأر الدوق القديم مع السحرة الحقيقيين أمثالك وأمثال عائلتك، وكيف تدخلت أنا كي أنقذكم منه بالحيلة.. تعالي معي يا ماري وسأحكي لك كل شيء.

- لن أذهب معك.

- تأملين في دخول مغارة دانيال، هه؟

- ليس هذا شأنك. عُد من حيث جئت. أنت تعرف أنني قادرة على إيذائك.

ضحك جبر وكأنه يضحك لترهات ينطق بها طفل. دمعت عيناه فمسحهما وهو يقول:

- قادرة على.. على إيذائي؟ حبيبتي.. يبدو أنك تصدقين الشائعات. أنت موقنة بوجود شيء كمغارة دانيال، ومجلس الجان، وكهف هاروت وماروت، وبأنك قادرة على إيذائي؟ ربما تؤمنين أيضا بالجنيات الصغيرات والإله القادر على إنقاذ روحك.. لا زلت صغيرة يا ماري، وتحتاجين إلى رفقة العم جبر.

- العم جبر قتل أنطون.. وسأقتله.

كانت تعرف أن الحجارة لم تكن لتؤثر في شيطان كهذا. روحها ترتجف بردا وغضبا وخوفا. تقدم منها جبر، فظفت نحوه. ارتفع هو الآخر فتلاقيا في الفراغ تحتهما الأنقاض والجثث وحولهما الضباب.

لم يخطر ببالها شيء إلا طقس إخراج الشياطين الكنسي. لا تعرف سواه ولا تدري كيف لمرء أن ينجو من لقاء شيطان.

رددت بإصرار ترجو الإله الخير:

- يا رب الملكوت، يا رب الملائكة والأنبياء والرسل والشهداء.. يا رب

التائبين. يا رب المُبتلين..يا من تملك قوة البعث بعد الموت...

عقد جبر حاجبيه وانقلبت ملامحه للمرة الأولى، وردد قداسه الأسود:

- يا رب القصي والحالك والرجيم.. يا رب الطين والعفن والرماد والنار.. يا لوسيفر، يا بعلزبول، يا إبليس، يا مُعذب الأجساد ومُخرج الأرواح من السماء إلى أسفل سافلين..

تنهال الصخور فوقهما، وتتشقق الارض مُخرجة الصديد العفن. الرائحة لا تُطاق، تسعل ماري وتكمل ابتهالاتها، يرتعد جبر غضبًا ويستمر في قداسه الأسود.

الغربان تملأ المكان، تنظر لماري للأعين حمراء شيطانية، لا مجال للانتصار عليه وقد جاء أعوانه. عاد شعورها بجسدها وألمه، صرخت وقد أيقنت أن كل شيء قد انتهى، لكنها ستموت، ولن يظفر منها الشيطان بقلامة ظفر.

*****

الفصل العاشر

٢٠٠٦ ميلاديا

جنوب سيوة

خرجت موراخيا، فهرعت الى التابوت أفتحه لأخرج الطفلة الباكية. لم أفكر في مغبة انكشاف أمري. فما يحدث فوق طاقتي على التحمل.

بكت الطفلة وقد ثقب جسدها الصغير في أكثر من موضع، لكنها ثقوب غير عميقة جراء انغلاق التابوت عليها ببروزاته الحادة الداخلية. حملتها وأنا أحاذر أن أطأ دماءها التي بدأت في التسرب إلى الحوض الحجري من مجرى متصل بالتابوت.

همست شياطيني في تلذذ:

- احملها يا آدم.. ضمها إليك بشدة.. دع دمها يخترق ملابسك.. هيا.. هيا..

الدماء البشرية التي يعشقها الشياطين. أنزلتها وأمسكت بيدها وقدتها إلى السلم وأنا أسألها:

- من أين جئتِ؟

- أنا هنا منذ أيام كثيرة.. من أنت؟ أنت منهم؟ أنا خائفة منك.. اتركني..

تملصت الطفلة من يدي وابتعدت وهي تكاد تبكي رعبا. أعرف أنها خائفة من شياطيني أكثر من خوفها مما يحدث لها. آلمتني فكرة أنني لن أضم أي طفل مرة أخرى، ولن أسكن في صدر زوجة أو أبناء، ولن يجلس أحد جواري وأنا أموت.

ما كان لي أن أكون..

- لا تخافي مني.. يمكنك أن تظلي بعيدة عني كما تشائين، فقط أخبريني كيف جئت إلى هنا؟

- أنا خائفة منك. أريد العودة إلى ماما وبابا.

- سأساعدك.. أين هم؟

- في البيت.

- وأين البيت؟ صفيه لي؟ هل تعرفين عنوانك؟

- أجل. سيدي بشر عند الترام. هل تعرفه؟

ابتسمت رغمًا عني. تفصيلة بسيطة كعنوانٍ في الإسكندرية أعادتني إلى العالم الحقيقي. لست في فيلم سينمائي أو كابوس أو عالم موازٍ.

- أعرفه. من أخذك من والديك؟

- رجال.. لا أعرفهم.. أخذوني من البيت لكن ماما قالت لي أنني يجب أن أذهب معهم، ولم أرها مرة أخرى.. هل.. هل يمكن أن أبتعد أكثر أم أنك

ستغضب وتُعيديني إلى الصندوق؟

- ابتعدي كما تُحبين، لكن لا تبتعدي كثيرا حتى استطيع سماعك. قولي لي، أين تمكثين هنا؟

- في حجرة مع سناء وريهام وخديجة.

- هم في مثل سنك؟

- أكبر قليلًا.

- وماذا حدث اليوم بالتفصيل؟

- كنت ألعب في الأعلى، في الحديقة في الأعلى.. ثم رأيت غزالًا مثل الرسوم المتحركة فلعبت معه مع أنني كنت أعرف أنه شرير.

- كيف عرفت؟

- في كل مرة يظهر لي حيوان جميل، أتبعه دون أن أرغب في هذا، وأجد أنه قد وضعني في الصندوق المخيف ويظل الدم ينزل من جسدي فترة، ثم يأتي رجل ويُعيدني إلى حجرتي.

- كم مرة حدث هذا؟

- أربع.. لا.. خمس.. نسيت مرة الأرنب الأبيض.

- وهل يعتنون بك بعدها؟ بالجروح؟

- يأتونني بطعام كثير، لكن أنا أضع يدي عليها هكذا فتشفى.

ورأيتها تضع يدها على جرح ذراعها فيختفي. الطفلة زهورية. هل يعرف أهلها أين ذهبت؟ وهل جاءت هنا بموافقتهم؟

- ما اسمك؟ أنا اسمي آدم.

- اسمي رضوى.

- كم طفل هنا يا رضوى؟

- كثير. أولاد وبنات.

- هل يمكنك أن تعودي بمفردك لحجرتك؟

صمتت قليلا ثم هزت رأسها إيجابًا. قلت لها:

- هل يمكنك أن تريني اين هي؟ كي ازورك؟

صاحت في خوف:

- لا! لا تزرني.. أنت.. عفريت؟

- كلا يا صغيرتي.. لستُ عفريتًا بالطبع. يمكنك العودة إلى حجرتك.

قبل أن أكمل عبارتي، جرت الفتاة عبر الأروقة، فتبعتها بحذر كي أعرف مكان الأطفال. ثم قررت العودة إلى حجرتي كأنني لم أفعل شيئًا.

فطنتُ إلى أن المكان خالٍ، ربما الجميع مشغول في الاجتماع، أو أنهم يعيشون في مكان آخر. نظرت من نافذة حجرتي المطلة على الصحراء الشاسعة، وحددت مكان الشمس لأعرف اتجاه القبلة، وبدأت أصلي ما فاتني بالتقريب، فأنا لا أعرف كم لبثت هنا.

طُرِق الباب، فانتهزت شياطيني الفرصة كي تُشتتني. أخرستها بالكاد، لكنني لمحت رأس مهدي يطل من الفرجة. وقف مكانه حتى انتهيت من الصلاة، فأشار إلى اتجاه على يمين قبلتي وقال:

- القبلة في هذا الاتجاه. بسبب الرَّصَد حول قصر ديهيا، الاتجاهات قد تكون منحرفة قليلًا عن الواقع.

- مهدي.. ما هو الرَّصَد؟ أعني.. أعرف أنه إخفاء لمكان عن طريق السحر أو الاستعانة بالجان. لكن.. هل أنت مُتعلم؟

- أقرأ وأكتب فقط.

- هل تعرف ما هو الرَّصد؟ من منظور علمي؟

ابتسم وهز رأسه ببساطة أنه لا يعرف، ثم أردف:

- لو أردت، يمكنك الجلوس مع آل دهمان، هم من صنعوا هذا الرَّصد وهم خير من يجيب على أسئلتك.

- ومن هم؟

- جن.. علماء من الجن.

عاد إحساس التشتت مرة أخرى. أين أنا؟ هل ما يحدث لي حقيقي؟!

- مهدي، ما هذا المكان؟ دون تعقيدات لو سمحت. ما هذا المكان؟

- مملكة ديهيا. حيث يعيش في أمان كل من اضطهد لأجل مواهبه الربانية. الجميع يعتبرنا سحرة أو ممسوسين أو كفارًا، أليس كذلك يا أخي؟ نحن هنا في أمان، نبني مملكة قوية سنعلن عنها حين نصير أقوياء وننتصر على أعداء ديهيا من الشياطين ومن والاهم.

- أفهم أن ديهيا تستخدم الـ.. المضطهدين في تكوين جيش ينتصر لها، أليس كذلك؟

- نحن ننتصر لأنفسنا يا أخي بقيادة ديهيا. كل منا يمنح ما يستطيع.

- نمنح ديهيا دماء الأطفال؟

اقتربت من مهدي والحنق يعميني، لا أعرف إن كنت قد تسرعت في إعلان ما عرفته، لكنني صحت فيه:

- أنتم تخطفون الأطفال وتطعمون الشياطين دماءهم. تلك الأحواض اللعينة تستحم فيها الشياطين بدماء الزهوريين ليصيروا أقوى. أتقبل أن يُفعل هذا بزوجتك؟

ابتسم مهدي في صبر أحسده عليه، ثم قال:

- أخي.. أقبل أن تمنح زوجتي دماءها لما في الصالح. عالية منحتك دماءها كي تشفي شياطينك فيشفوك. لا أعرف كيف تكون إنسانًا وشيطانًا في نفس الوقت، لكننا عرفنا أن الدماء هي ما تشفيك مثلك مثل الشياطين تمامًا.

- ماذا عن الأطفال؟

- الأطفال هنا بإذن آبائهم. سبعة عشر طفلا يطاردهم سحرة يريدون دماءهم لفتح مقابر أثرية أو كنوز مدفونة. بمجرد أن يبلغوا عمر العاشرة، سنعيدهم إلى أهلهم.

- لماذا العاشرة؟

- لن تكون دماؤهم صالحة لاستخدام السحرة. لكنها ستظل ثمينة، لا يعرف قيمتها إلا عدد محدود للغاية من البشر.

صمتُ. لست في مكان قوة الآن. جئت هنا كي أتعلم، والآن صار على كاهلي إنقاذ هؤلاء الأطفال. لا أظن أن أهلهم على علم بأنهم يستنزفون دماءهم لشفاء الشياطين.

سألت مهدي مضيقًا عيني:

- أنتم تشفون الشياطين بدماء الأطفال. ألم تقل أن الشياطين أعداؤكم؟

- هم أعداؤنا. الشياطين في الأحواض الحجرية عبيد الشياطين، من مراتب دنيا عبروا من بوابة ديهيا، عقدنا معهم عهدًا أن يخدمونا ويعملوا معنا كجواسيس. لكن ليس للشياطين عهد. كلما عبروا جيئة وذهابًا من وإلى عالمهم، ضعفوا. ولا يملك أحدا ترياقًا لهم إلا ديهيا. لذا سيظلون تحت سيطرتنا، وهم يعتبرون ما تفعله معهم أمي نعيمًا له مقارنة بما يلاقونه من سادة الشياطين.

- فهمت.

هززت رأسي، وطلبت منه أن يتركني قليلًا كي أعيد صلاتي التي صليتها

إلى غير القبلة. قال لي قبل أن يخرج:

- ننتظرك في القاعة السفلية. انزل الدرج وعند نهايته، وستجدني في انتظارك. السلام عليكم.

القرار صعب للغاية. هل أمكث وأتعلم وأصبح أقوى بما لا يقاس، أم أظل خزا، بطيء التعلم، وأنقذ الأطفال من ذلك الفخ؟

رفعت كفي مكبرًا، وانخرطت في الصلاة مرة أخرى رغم أنين شياطيني وألمها.

*****

الفصل الحادي عشر

١٢١٥ ميلاديا

الدورة رقم اثنتا عشرة ألفا

بتقويم مغارة دانيال.

تغوص الأرض من تحت ماري، وتتشبع بدمائها. تسقط في فجوة وجثث صائديها فوقها، فلا تعي إلا أنها تبحث عن أنطون.. أين جثته الحبيبة؟

تضحيتك ذهبت هباءً يا عزيزي أنطون.

تهوى وتهوى إلى حفرة بلا قرار..

ثم تتوقف طافية في الهواء، وكأن ما حولها ماء. كل شيء يطفو. لكنها تتنفس. وتسبح نحو جثمان أنطون تتشبث به. تنظر حولها فترى رجالًا طوالًا يسبحون في دائرة تحيطها. ملابسهم واسعة بيضاء ذات انعكاسات فضية، لحاهم طويلة ناعمة تحيط بوجوههم الصافية شبه البشرية. العيون البنفسجية تُحدق إليها، الأفواه الواسعة التي تمتد من الأذن إلى الأذن تبتسم..

- ماري.. أنت هنا في غير موسم فتح المغارة، لكننا نرى ونسمع كل شيء يحدث في جبال الأوراس الأزلية، التي نحن منها وهي منها. الأوراس كائن حي نابض، يحب ويكره، يحارب ويهادن ويسالم. الأوراس فتحت لك ذراعيها.

- من أنتم؟ هل هذه هي مغارة دانيال؟

- أجل.. تطلقون عليها مغارة دنيال، لكنها أحد مداخل جسد الأوراس العتيق. نحن منه وهو منا. هل تودين أن تندمج كينونتك في كينونته الأزلية؟

- كيف هذا؟

سبح رجل نحوها، وأمسك بيدها وقال:

- لقد ضحى هذا الرجل التضحية الكبرى الملعونة، كي ينقذ حياتك. هل ستذهب تضحيته هباءً؟

- هل.. هل كان ساحرًا؟

- هو يعرف عن السحر، لكنه بالتأكيد ليس ساحرًا، ولن يكون إن أراد.

- لماذا؟

- طريقتان للسحر لا ثالث لهما، الهبة الإلهية، والشياطين. أنت تملكين الأولى، وتستطيعين أن تحكمي العالم لو تعلمت الثانية.

صاحت ماري في غضب:

- لا أريد أن أكون ساحرة. كل ما حدث لي ولأحبائي كان بسبب السحر. أريد أن أكون سيدة عادية، أنجب الأطفال وأموت على فراشي وسط عائلتي.

- هل تريدين العودة يا ماري؟ ماذا ستفعلين بالشيطان الذي يطاردك؟ كيف ستعيشين وهبتك الإلهية تنفجر دون سيطرة منك في وجه من

يقتربون؟ أنت منا يا ماري.. من الأوراس. اليوم قد حدث استثناء لم يحدث منذ آلاف الدورات. الأوراس يفتح ذراعيه لبشري في غير موعده.

تجذب ماري كفها من بين كفيه، وتنظر إلى وجه أنطون، تمسح عنه الدماء. تود لو تسأله عن القرار الصائب. تستدير نحو الرجل الذي يحدثها وتهمس في حيرة:

- هل.. يمكنني أن أظل هنا.. أتعلم.. دون أن أستعين بالشياطين؟

- يمكنك ألا تستعيني بهم أبدًا، لكن عليك أن تتعلمي الطريقة، وتعرفي كل شيء عنهم. الساحر والشياطين أعداء مهما تحالفا. لو لم تكوني في صفهم، لن يتركوكِ وشأنك.

- حسنًا. وما مقابل أن أتعلم؟

- لا شيء.. ستكونين جزءًا من الأوراس. لكن لتعلمي أنك لو فشلت في التعلم، لن تخرجي من هنا، ستضيعين للأبد.

- أوافق.. لكن بشرط. أريد أن تأتي أنجيل وباقي رفقتي إلى هنا. أريد أن أحميهم.

- هم بخير. لن يمسهم سوء طالما ابتعدتِ عنهم.

- لكن. لا أعرف كيف سأعيش بدون أنجيل.

- لا يمكن لبشري أن يحيا هنا، لا بد وأن يكون جزءًا من الأوراس حتى يدخل في قلبه. رفيقتك ليست ساحرة.

سألته ماري إن كانت ستحتفظ بقدرتها على التواصل مع أنجيل في الأحلام واليقظة، فقال أنها ستظل موجودة، لكنها ستضعف مع الوقت، ومع اندماج ماري في جسد الأوراس الأزلي.

لم يكن أمامها سوى القبول. تسعة أشهر ثم تولد من رحم الأوراس، أو يبتلعها الجبل إلى الأبد.

الفصل الثاني عشر

٢٠٠٦ ميلاديا

جنوب سيوة

كنا وحدنا، أنا وديهيا في قاعة فسيحة ممتدة، موشاة بالحلي الذهبية والمتكئات الفاخرة. كل شيء مرصع بالأحجار الكريمة أو مصنوع من الذهب أو الفضة.

قال لي مهدي أنه وجد ديهيا بسبب هذه القاعة، فهو يعرف أماكن الكنوز كونه زهوريا ملكيا، أي شديد الموهبة. وحين زارته ديهيا في أحلامه، استطاع أن يحدد مكان كنزها فوجدها، أو وجدته.

تجلس هي أمامي، متحررة من غطاء رأسها، فبدا لي شعرها الأبيض الكثيف المخضب بالحناء، وظهر أثر الغمر على ملامحها فقدرت عمرها بمائة عام أو أكثر قليلا. لكنها كانت تتمتع بقوة وصحة أبناء الأربعين.

قالت لي بالفصحى التي تخفي لهجة أخرى خلفها:

- تركتك لراحتك، تجول حيث تشاء. أنت لست أسيري، ولك الحق في السير حيث شئت. يمكنك حتى أن ترفض أمومتي وترحل. لكن قبل أن تتخذ قرارك، أريد أن أحادثك في بعض الأمور. أولها أنني موقنة أن نهايتي ستكون على يديك.

- لماذا..

رفعت كفها الموشومة في وجهي واغمضت عينيها الزرقاوين وقالت:

- لا تناقش نبوءاتي يا بني. أنا أعرف. لكني أعرف كذلك أن وجودك معي سيغير الكثير في حياتي، وحياتك، وحياة آلاف من أمثالنا، الذين يعتبرهم الناس سحرة أو ممسوسين.

- وأنت؟ لست ساحرة؟

- كلا.. لست ساحرة. وأنت كذلك يا ابن لاشين لست ساحرًا، لكن أبوك اختار طريق الضلال واستعان بالشياطين. فكان السبب فيما تورطت أنت فيه، لكن دماؤه التي ورثتها عنه، هي ما جعلت منك أعجوبة.. دعني أتكئ على ذراعك وآخذك في جولة بعدها تُقرر ماذا تريد أن تفعل. هيا..

قامت من على عرشها المكعب. وتركت عصاها الطويلة التي تشبه هيئة طائر، وأسندت وزنها الخفيف إلى ذراعي. لم تكن خائفة مني، والحق أنني كنت مُشتاقًا للفتنة بشرية كهذه.

زفرت وأنا أنفض هذا الوهن عن روحي. ديهيا ليست أمي.. ديهيا ساحرة خبيثة تستغل الأطفال لأجل تنعيم الشياطين.

سارت بي حتى بوابة مذهبة ضخمة، فتحتها بمفتاح طويل معلق إلى حزامها الجلدي المنقوش بطلاسم. ما رأيته خلف الباب أقرب إلى معمل أثري من معامل خيمياء العصور الوسطى، حيث عكف البعض على تجارب تحويل الرصاص إلى ذهب، وتصنيع لابِس فيلوسوفورم؛ حجر الفلاسفة.

صارحتها برأيي فيما أرى، فضحكت ضحكة مُجلجة وهي مُستندة إلى ذراعي تُمسك بطنها، ثم قالت:

- أتريد أن ترى حجر الفلاسفة يا آدم؟

- هل هو حقيقي؟ مُستحيل!

- تعالَ يا بني.. تعالَ.. أتعرف كم عُمري؟

- أعتقد فوق المائة..

- فوق الثمانمائة عام.

انطلقت صفارة من بين شفتي رغمًا عني. قادتني إلى حيث مكان فارغ تمامًا في الحجرة، ثم خلعت حزامها ووضعته على شكل دائرة في منتصف المكان، فدار من تلقاء نفسه وظهر في منتصفه عبوة زجاجية بها مسحوق أحمر نحاسي.

- هذا هو حجر الفلاسفة يا بني. ترياق لكل الأمراض إلا الموت. يطيل العمر، لكنه أبدًا لا يهب الخلود. صنعه النورانيون لي من خلال خيمياء علوية تحتاج إلى طاقة لا يحوزها بشر، تدفع الحجر البازلتي العادي عبر سلسلة من التفاعلات تصل إلى اثنتي عشرة مرحلة تتم في أطوار مختلفة للقمر.. يسمون العملية العمل العظيم.

- ماجنوم أوبُوس.

- قرأت عنها؟ كما توقعت يا بني.. كما توقعت. أراك تسأل نفسك، لم أستأمنك على أسراري وأنا موقنة أنك ستقتلني، والإجابة أمامك.. حجر الفلاسفة. لم أكن يومًا من الشغوفين بالحياة، ولهذا قصة سأحكيها لك إن أردت. لكن أعدائي –الشياطين- طويلة الأعمار، وأنا مضطرة أنا أحافظ على حياتي كي أكمل ما وصلت إليه في حربي معهم. لكن مهما طال العمر بي، فأنا أشيخ، وسأموت ولن ينفعني الحجر. لمن سأترك مملكتي ومن سيكمل حربي من بعدي؟ هذه هي حاجتي لأبناء يرثوني، ويرثون حربي لأنها حربهم، لا لأنني ورطتهم فيها كما فعل أبوك معك.

لحديثها منطق يداعب عقلي، العلم الذي تتحدث عن تفاصيله، حتى وإن كان علمًا غير بشري. ثأر الشياطين. الحرية التي تزعم أنني أمتلكها هي بالضبط ما يقيدني بأغلال الاختيار. هنا سأتعلم وأعرف كل ما تعرفه ديهيا. هنا يمكنني التواصل مع كافة المخلوقات الخفية، بل والتعاون معها ضد الشياطين. لدى ديهيا سلطة مطلقة تستطيع أن تحكم بها العالم، لكنها اختارت حربًا أخرى، حربًا ضد الشياطين كي تقيم مملكة للمضطهدين. هل أوافقها؟ هل أخضع لسحر أمومتها؟ هل أنسى الطفلة الصغيرة التي بالكاد تستطيع الكلام والتعبير؟ هل أنسى خوفها مني ومما هي فيه؟

- أخبريني.. أرى حولك كائنات من شتى الأنواع، وأرى أن الجان يساعدك في تحصين المكان، والكائنات النورانية تصنع لك الأعاجيب الخيميائية. لماذا يخضعون لك؟

- هم لا يخضعون لي.. هم أوليائي وحلفائي لا أكثر.

- وكيف تواصلتِ معهم؟

- بالطلسم.. الطلسم الذي استحققته بعد ولادتي من رحم الأوراس.

- لا أفهم يا سيدتي.

تأبطت ذراعي مرة أخرى وهي تقول لي:

- دعني أجلس أولا، وسأحكي لك كل شيء. بعدها، تقرر إن كنت تريد أن تكون بن ديهيا الوريث، أم لا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

٢٠٠٦ ميلاديا

جنوب سيوة.

قالت لي ديهيا وهي جالسة على عرشها المكعب بصوتٍ مبحوح حزين:

- هكذا يا بني، قبلت عرض المخلوقات الأوراسية، فنقلوني إلى بعد مكاني وزماني آخر، إلى رحم الأوراس أو مغارة دانيال. معسكر تحت الأرض لتدريب السحرة، وكنت أنا قد انضممت في نهاية فترة إعداد الطائفة التي انضمت للمغارة منذ ثمانية أشهر. كنت أتعلم وحدي بالطبع، لأنهم قد سبقوني، لكني كنت أرى تدريباتهم من بعيد، وكيف يستطيعون فتح أنفاق الظلام.. تلك التي يعبر منها الشياطين. كيف يتعلمون التراتيم ويدربون حناجرهم على حروفها غير المألوفة في أي لغة أرضية، كيف يستخدمون الاهتزازات الصوتية لإضعاف الشياطين ولإخضاع الجان ولتشتيت الكائنات النورانية.

- ألم تخبريني أن الجان والكائنات النورانية حلفاؤك؟

- وقلت أنهم أحرار. الحر قد ينقلب من حبيب إلى غريم في لحظة يا بُني، لذا علينا أن نعرف أكثر عن إيذائهم إن آذونا.

- فهمت.. أكملي..

- كنت أتعلم وقتها كيف أفرق بين دماء السحرة الطبيعيين ودماء خُدام الشياطين من السحرة. كل شيء يا بني مُسجل في هذا السائل الذي يجري في عروقك. أجدادك ونسلك وصفاتك وإن كنت شقيا أم سعيدا. برعتُ في قراءة الدماء تحت المرايا العاكسة المُكبرة، وكتبت مخطوطات هامة في قراءاتي أثارت اهتمام الأوراسيين. معرفتي بالمستقبل القريب

ورؤيتي له، مع قراءتي للدماء زادتني علمًا ومكانة بينهم. لكنهم لم يندهشوا، فنادرًا ما يفتح الأوراس ذراعيه لساحر، وهم مؤمنون أنه اختارني لأنني مختلفة.

- وهل قرأتِ دمك؟ أعني.. حكيتِ لي أن بعض الكاثار يؤمن أنك من دم مقدس. هل تأكدتِ من هذه المعلومة؟

ضحكت ديهيا، وقالت وهي تهز رأسها:

- خرافات يا بني.. خرافات.. قرأت دمي وأنا أرجو أن تكون خرافات، وقد كانت. لا أعرف إن كان المسيح قد تزوج وله ذرية أم لا، ولا يهمني أن أعرف. لا أعرف إن كان الكاثوليك على حق أم الكاثار أم أي ديانة أخرى. أنا لا أؤمن بأي دين، لكنني أعرف أن هناك خالقًا لكل هذا، وسأعود إليه، وآمل أن يسامحني فأنا بالفعل بحثت عنه، ولم أجد له طريقًا. أنت مُسلم يا آدم، أليس كذلك؟

- بلى.

- ومهدي وعالية مسلمون. وبيننا جان مُسلم، ومخلوقات على أديان توحيدية أخرى، ومخلوقات على أديان وثنية. المكان يسع الجميع يا بني، وأتمنى أن تحافظ عليه هكذا.

- لا زلت أفكر في عرضك يا سيدتي.

- خُذ وقتك.

- ومهدي؟ لماذا لم تورثي عرشك له؟

- مهدي ابني المخلص، ساعدي الأيمن.. لكنه يا بني ليس بشريًا بالكامل، ولا أحب أن أمنح عرشي إلا لبشري مثلي. ثم إن مهدي ليس كما يبدو لك، فهو قاتل محترف.

- قاتل؟!

- سأدعه يحكي لك إن شاء. أعود لقدراتي على قراءة الدماء.. من ضمن

العينات التي أحضروها لي كي أقرؤها، عينة لساحر من أبناء الأوراس، رأيت في صفاته ما لم أره من قبل. لم يكن عربيًا، بل من مكان قريب من شمال تركيا. قرأت في خلاياه أنه يحمل نسلًا قادرًا على إفناء عرش إبليس ذاته.

- إفناء عرش إبليس؟ كيف؟

- بأن يكون هو بدلًا منه. هو الأول والأخير، هو القادر على إنهاء الوساوس والضلال لأنه هو، ابن آدم، سيقتل الشيطان ويحكم الشياطين من فوق عرشه.

- هذا تخريف.. معذرة، لكن هذا غير ممكن.

- هذا هو ما رأيت يا بُني.. في نهاية الزمان سيسود الخير العالم، وستنمحي الخطايا، ويعيش البشر كالملائكة على الأرض كما كانوا حين خلقهم الخالق.

نظرًا لخلفية ثقافتها الأوروبية القديمة، فيبدو أن ما تقرؤه في الدماء ممزوج بأساطير العصر الذهبي للإنسان، وكيف كان ملائكيًا يأكل بلا تعب ويمتع بمرافقة الملائكة وحمايتهم، بالإضافة إلى المعتقدات الغنوصية والثيوصوفية التي يعتنقها الكاتار. فكرة الإلهين هي وليدة ثنائي الإله والشيطان، يؤمنون بالتناسخ والسحر ويدمجون كل هذا في دين يعتبرونه المسيحية الحقّة.

إن كان حجر الفلاسفة قادر على شفاء أمراض ديهيا، فهو غير قادر على شفاء عقلها من ضلالات الشيخوخة.

- ماذا حدث بعد أن برعتِ في قراءة الدماء؟

- ألا تريد أن تعرف من هو الساحر الذي قرأت تلك النبوءة في دمه؟

- من هو؟

- هاجوب لاجين.. أو من يعرفه سحرة الشرق بيعقوب لاشين. جدك الأكبر

يا بُني. وأنت.. أنت من سيجلس على عرش الشيطان ويطيح بمُلكه.

***

تقول لي شياطيني:

- آدم.. وافق يا آدم.. كل هذا المُلك والعظمة. نحن في أمان معك.. لقد ذُبنا في دمائك، فمقدر لنا أن نصعد من مرتبة العبيد إلى مرتبة الملوك. لقد حميناك يا آدم وسنحميك للأبد إن قبلت، وهضمت الشياطين جميعًا، أولئك الذين كانوا يعذبوننا ويبغضوننا ويضحون بنا في المهالك.

أقول لها:

- كي أجلس على عرش الشيطان، سأتحول بالكامل إلى شيطان.. سأبتلعهم وتحل خلية شيطانية مكان كل خلية بشرية في جسدي. سيتحمل جسدي كل هذا، لكن روحي ستحترق.

-ممَ تقلق؟ من خالقك؟ هو من خلقك بهذا الشكل كي تصير شيطانًا. ربما يسامحك لأنك ستنقذ البشرية، أو سيلقي بك في الجحيم فداء لهم.. لا نعرف.. لكن هذا هو الخيار الأمثل لحياتك على الأرض يا آدم. لو رفضت، فستطاردك الشياطين.. مامون يعرف بشأنك، لا تنس. سيهزمونك في النهاية لو لم تتعلم من ديهيا وتصر أقوى.

- لو قتلني الشياطين، فسأموت بشريًا على الأقل.

- آدم.. آدم.. أنت لم تعد بشريًا ولا سبيل لإخراجنا منك. أنت رأيت بنفسك أنك لن تموت طالما نحن بداخلك، ولا يوجد بشري قادر على إخراجنا منك، ويبدو أن جميع المخلوقات تعجز عن هذا. أنت الأول والأخير. اقبل يا آدم.. اقبل..

ظلت ديهيا تُحدق في وأنا بعد صامت. المفاجأة ألجمتني، فتركتني هي حتى أستوعب ما قيل. تكذيبها لا يعني شيئًا، فأنا بالفعل غير أي بشري آخر. ما الذي جعل الشياطين تندمج في جسدي هكذا فلا تقضي عليّ ولا

تمسني كباقي الممسوسين؟

هل هذا هو مصيري؟ آدم لاشين.. هدفك أن تصل إلى إبليس لتنتقم منه، أليس كذلك؟ لمَ ترفض الآن ما سيوصلك إلى هذا الهدف، بل وتُكذب من يقول أنك ستصل؟

- سيدتي.. أحتاج إلى وقت كي..

- أفهم يا بُني.. أفهم.. لا تنس فقط أنك درة عقدي، ومن بعدي ستكون الأول والأخير، وريث عرش ديهيا وكنزها وحلفائها. ليس لك أطماع دنيوية يا بُني، أنا أعرف هذا.. لذا ليس لأحد أن يُطالب بعرشي سواك.

- هل سأتحول إلى شيطان بالكامل في النهاية؟

- هل أنت شيطان الآن يا بُني؟ هل آلمك خوف رضوى منك؟ هل فكرت أن تُضحي بحلمك وانتقامك من أجلها؟

- كيف...

- تنسى أنني عرافة.. تنسى أنني أرى وأسمع. أنا ديهيا كاهنة الأوراس، لا تنس يا بُني.. لا تنس..

- لماذا غيرت اسمك؟

- من حق كل مولود جديد اسمًا جديدًا. وقد سميت نفسي على اسم بطلة محاربة، وأم قتلتها أمومتها. قيل أنها عرافة، لكنها لم تكن كذلك على الأرجح. أنا أعرف مصيري وأتقبله إن كان على يدك يا بُني.. يا وريثي..

طلبت منها الإذن أن أعود إلى غرفتي، فأشارت لي برفق أن أذهب. أكاد أشم الدخان يخرج من عقلي. ماذا أفعل؟ هل هذا هو ما حذرني منه الشيخ طاهر؟ أم أن ما رأيت كان حلمًا بلا معنى؟

إلهي.. أغثني..

***

صليت العشاء مع مهدي وبعض البشريين الآخرين مما لا سحر لديهم لكنهم من أهالي سيوة الأيتام الذين يقومون على أعمال المكان وتنظيفه تطوعًا منهم ومحبة في معاملة ديهيا التي تقيم في هذا المكان منذ قرون.

اخترت مكاني في نهاية الصفوف لأنني رأيت الخوف الذي غزا ملامح الأهالي إذ اقتربوا مني. لم يُدركوا أنني مصدر الخوف، وظلوا يتهامسون عن احتمالية أن يكون شيطان ممن تحبسهم ديهيا قد فر.

بعد الصلاة، ذهبنا إلى آل دهمان، العلماء الذين يعملون في مرصد أعجب مما أستطيع وصفه. لا توجد كلمات تصف الأدوات والمناظير، فكلها من عالمهم الطاقي، أراها كأطياف أو توهجات نارية لا وصف لها ولا شبيه في عالم الماديات.

لكنني جلست مع واحدٍ منهم، تجسد إلى أقرب شكل يستطيع عقلي استيعابه، ورأته شياطيني بالطبع في صورته الأصلية، فتضارب الشكلان في عقلي. حدقت إلى الأرض وأنا أحاوره كي لا أتشتت.

قال لي:

- ما سؤالك؟

- ما هو الرصد؟ بشكل علمي؟

- نقل المكان المرصود إلى بُعد آخر. بُعد الكيانات الطاقية. لكن لخصائصه المادية، يظل مُتعلقًا بعالمكم المادي ويتأثر به.

- كيف يتأثر به؟

- يتأثر بالزمن الأرضي.. الطقس.. لو أن نيزكًا نزل عليه من السماء لزال ترابطه بالعالم المادي وفنى في عالم الطاقة.

- هل يمكن للإنسان أن يصنع رصدًا دون الاستعانة بالجان؟

- لو توافر له الطاقة اللازمة. أجل. لكنها طاقة لا سبيل للبشر إليها.

- سؤال آخر، لا أعرف إن كنت تستطيع أن تجيبني عنه.

نظر الكائن نحو مهدي وقال:

- قيل لي أنه سؤال واحد.

- معذرة يا أخي الكريم.. سؤال آخر فقط. آدم.. فكر في سؤالك، لديك سؤال آخر فقط. علوم الجان لا يطلع عليها أحد دون عهد الطلسم الذي يأخذه عند إتمام تعليمه في المغارات الجبلية السبع.

- أفهم هذا. سيدي.. هلا شرحت لي كيف يرى العراف المُستقبل؟ أنا مسلم، وديني يمنعني من تصديق دراية البشر بالمستقبل.

قام الجني متجهًا نحو كرة طاقية متوهجة، وجهها نحو الأرض فطفت على مسافة سنتيمترات، وقال:

- ببساطة، وكي تفهم دون دخول في تفاصيل لا يحق لك معرفتها. أغمض عينيك وسترى ما تراه هذه الكرة.

أغمضت عيني، للحظات لم أرَ شيئًا، لكن بالتدريج بدأت أرى أرضية القاعة من مسافة قريبة جدا، كأنني أنا الكرة. وكانت الأرض منقوشة برسوم في دوائر داخل بعضها. سألني الجني:

- ماذا ترى؟

- أرى الأرض.. وحلقة من النقوش بشكل واضح، لكني أرى حلقات بعدها بشكل مشوش.

حرك الجني الكرة لأعلى قليلًا، فرأيت ما كنت أراه ضبابيًا بشكل أفضل. وكلما ارتفعت الكرة رأيت نقوش الأرضية كاملةً، وأدركت أنها تمثل خارطة النجوم.

قال الجني:

- حين كنت قريبًا من الأرض، لم تكن ترى سوى الحاضر، اللحظة التي

تحدث لك بالتحديد، وكنت تجهل ما يحدث لكل شخص في العالم رغم أن ما يحدث له هو حاضر أيضًا، وليس في المستقبل. ما يحدث في مكان آخر، هو غيب بالنسبة لك، لكنه ليس كذلك لو استطعت معرفته عن طريق.. علوم البشر. مثل أجهزة الصور وأجهزة نقل المعلومات.. لا أتذكر أسماءهم.

أظنه يقصد التلفاز والحواسيب وغيرها. أردف:

- ما تراه من خلال الكرة الآن هو الغيب الذي يستطيع أن يراه من يملك رؤيته. وهو ليس غيبًا كما ترى. فقط هو مخفي عنك لضعف قدراتك كبشري. كلما صعدت لأعلى، رأيت أكثر وصرت عرافًا بالنسبة لن لا يملكون قدراتك.

- فهمت.. لكني أتحدث عن معرفة المستقبل، لا معرفة الغيب. أتفهم الفارق؟

- أفهم.. أغمض عينيك وسأريك.

أغمضت عيني، وشعرت بدفقة طاقة رهيبة، لم أرَ خلالها شيئًا في البداية، ثم بدأت أرى صورًا لا نهاية محتشدة في فراغ كوني أسود.

قال الجني:

- كرة الطاقة نقلت وعيك معها إلى بُعد آخر أكثر سموًا من بعدك المادي. هنا ترى كل ما كتبه الخالق على البشر. بالنسبة للخالق، فكل ما سيحدث لنا هو ماضٍ وحدث وانتهى. كل شيء محفور في الكون؛ كل حدث.. كل هفوة.. كل مصير. العراف يستطيع في لحظات نادرة أن يرى مشاهد مما تسمونه مستقبلًا، لكنه بالنسبة للكون وخالقه، ماضٍ. لا يستطيع العراف الحقيقي أن يرى مستقبلًا بعينه، لا يستطيع مخلوق تغيير المستقبل لأنه ببساطة قد حدث بالفعل.

- وديهيا؟

- ديهيا عرافة بالفطرة، قدراتها على الارتفاع عن الأرض، والسمو الروحاني مكناها من معرفة الغيب الذي هو حدث يجري في مكان آخر في العالم. ثم بدأت ترى لمحات عشوائية من المستقبل الذي هو ماضٍ. لا تعرف ديهيا متى سيحدث ما رأته، ولا كيف سيحدث. وهذا أمر نادر أن يستطيع بشري الإطلاع ولو لثوان على أحداث الكون.

- لا زال قلبي لا يبتلع هذا التفسير، لكنه علمي بشكلٍ كافٍ بالنسبة لعقلي.

أعاد الجني الكرة إلى موضعها، فأفقت وعدت إلى القاعة. انصرف الكيان الطاقي قبل أن أسأله شيئًا آخر. قال لي مهدي وهو يرافقني للخارج:

- «إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير».

- هذا بالضبط ما أتساءل بصدده.

- لا يعلم أحد موعد الساعة، ولا يعلم أحد مصير ما في الأرحام، وشقي أم سعيد، لكن الأطباء صاروا يعرفون نوع المولود، أليس كذلك؟ نستطيع التنبؤ بالأمطار، لكننا غير موقنين بوقتها تحديدًا أو كميتها بالضبط، نستطيع أن نقول أن هذا المريض سيموت لكننا لا نجزم، ولا نعرف متى تُقبض روحه بالضبط. ما أريد قوله يا أخي، أن ديهيا وأمثالها لا يعرفون أي شيء وراء ما يرونه. عندما ترى صورة أسرة سعيدة، تقول أنها قطعًا سعيدة حكمًا على ما تراه من الظاهر. لكننا نعلم أن الصور خادعة، وما خفي كان أعظم.

- ماذا رأت ديهيا بخصوص قتلي لها؟

- رأت أنك تهوى بسكين على صدرها.

- ورأت نفسها تموت؟

- كلا.. هذا هو ما رأته. قد تقتلها حقًا يا آدم، لكن هل تموت فورًا؟ هل

ينقذها حجر الفلاسفة؟ فهمت؟

الآن فهمت. يتسق ما شرحه لي مهدي مع ما يدركه قلبي. ربما لن أصير شيطانًا في النهاية.. ربما ستنجو روحي..

***

لا أعرف إلى متى ستتقبلني ديهيا في مملكتها قبل أن أوافق أن أكون وريثها أو أرحل. أريد أن أتعلم وأعرف أكثر..

أريد أن أنقذ الأطفال..

لا أريد أن أقتل ديهيا..

لا أريد أن أصير شيطانًا..

قضيت يومين تاليين أراني فيهم مهدي أجزاء كثيرة من القصر، لكن أغلبه ظل مغلقًا، يثير فضولي وتساؤلاتي.

في اليوم الثالث، استدعتني ديهيا لمجلسها، وكانت ترتدي كل حليها وأفخر ثيابها. سألتني:

- ماذا قررت يا بُني؟

- أطلقي الأطفال الزهوريين يا سيدتي، أو أوقفي استنزاف دماءهم، وسأكون وريثك.

- لا توافق ديهيا على شروط يا بُني. ما أمنحك إياه أكبر من أي شيء يمنحه بشري لآخر. الأطفال بخير وقادرون على شفاء أنفسهم، وسيعودون لأهلهم حين يبلغون العاشرة. شفاء الشياطين الصغرى في صميم مخططي، ولا يمكنك التخلي عن هذا مستقبلًا وإلا فقدت جواسيسك في عالم الشياطين.

- نستطيع أن نجد بدائل. الشياطين تُشفى بالدماء العادية..

- ومن أين لك بالدماء العادية يا بُني؟ أي بشري سيموت لو استنزفناه

بهذه الطريقة. بمن سنضحي؟ بالإضافة إلى أن دماء الزهوريين هي السلعة التي نملكها ويخضع لنا من أجلها الجان والشياطين. هي إكسير الحياة بالنسبة لهم.

صَمت. همست لي شياطيني:

- اقبل يا آدم، ثم اقتلها وافعل ما شئت.. اقبل.. اقبل..

لو أنني في الماضي كنت أكذب، أو أخون، فلا سبيل الآن إلى أن اقترف أي إثم يقوي شياطيني عليّ. لا يمكن أن أكون بشريًا خطّاءً كباقي البشر.

- امنحيني يومًا آخر أفكر فيه.

- لا بأس. يوم واحد فقط.

- سيدتي.. سؤال أخير.. أين يعقوب لاشين الآن؟

- سأبدأ إجابتي عن سؤال بما حدث بعد أن ولدت مرة أخرى من رحم الأوراس بعد تسعة أشهر.. لأجد أنني فقدت كل شيء، وأن العالم في إثري...

*****

الفصل الثاني

١٢١٦ ميلاديًا.

جبال الأوراس

عند بوابة المغارة، خرجت ماري تحمل حزامًا جلديًا منقوشًا، هو عهد آل دهمان وطلسمهم. الجن هو من يختار الساحر الذي يواليه، لا العكس. وكان آل دهمان من علماء الجان، وتوسموا في ماري ما يخدمهم ويخدم أغراضهم، ووجدوا في أنفسهم القدرة على خدمتها وخدمة أغراضها.

كل ما أرادت ماري هو الابتعاد عن الشياطين، وتقوية سحرها الطبيعي

دون معونة، أن تكون الساحرة الوحيدة التي تخلق سحرًا خاصًا بها، بقوانينها وبما يرضيها.

كان هذا هو الطموح الذي ناسب آل دهمان تمامًا.

سكنت وحيدة عند سفح الجبل، تقرأ ما سمح لها الأوراسيون بنقله من علومهم، وتكتب أبحاثها الخاصة بلغة هي خليط من الأمازيغية والفرنسية، وهو أمر شائع لدى السحرة في كتابة مخطوطاتهم المُشفرة.

قدراتها على رؤية الغيب كانت محجوبة في المغارة كما أخبرها الأوراسيون، وأول ما فعلته بعد استقرارها هو محاولة استعادتها والبحث عن آنجيل.

لكن جبر قد عاد. وكان مُصرًا على استمالتها أكثر من أي وقت مضى. هل يعرف ما صارت إليه؟ هل يعرف أنها لم تعد ماري؟

ليلًا جاء وحده، دون معاونيه. كانت ماري تطبخ بعض خلطاتها العشبية التي تساعد بها مرضى أهل القرى القريبة، فبالنسبة لهم هي طبيبة بارعة تعالج بالأعشاب.

طرق الباب، وكانت تعرف أنه آتٍ، وقررت ألا تهرب مرة أخرى.

أطفأت النار تحت الخليط، وخلعت مريلوتها وفتحت.

- ماري الصغيرة.

- تفضل..

دخل الشيطان ينظر في أرجاء المكان، ويعبث في كتبها ومخطوطاتها، لكنها لم تتحرك.

- ماذا تريد يا جبر؟

- أريدك معي يا صغيرة.

- كلا.

- لدي عرض، اسمعيه أولًا..

شعرت ببرودة مُفاجأة، وأبصرت أمامها كيانًا أحلك من أي ظلمة رأتها من قبل. يشبه الوطواط بجسد شبه بشري، وقرنان يعلوان وجهه المخفي في الظلال. زحف نحوها بحركة متقطعة على كوعيه، فلم تُدرك إن كان يتحرك بسرعة فائقة أم ببطء مزعج. ألقى نحوها كتابًا عرفت من منظره أنه من جلد بشري مدبوغ. أشياء كهذه رأتها كثيرًا في المغارة، وعرفت كنهها.

هذا هو حامل الرمح، يُلقي إليها بعهد الدجالين.

قالت ماري في ثقة:

- هل تعطي الشياطين الدُنيا عهودًا للبشر الآن؟ للجحيم سبعة ملوك، وأنت لست منهم، ولا يهمني مرتبتك. لا يمكن أن تعطي العهد لبشري.

ضحك جبر ضحكة نقية برئية، لو أنه كان بشريًا لوقعت في حبه، لكنه ترك جسده المادي وظهر بشكله المُربك المُرعب، يملأ البيت ويحيطها بجناحين جلديين عفني الرائحة، وظهره مقوس يظللها، بينما يضرب بذيله المُشعر في أنحاء المكان.

لم تتحرك ماري، فهي تعلم كذلك أن هذا هو الشكل الشيطاني الذي يُبديه الشياطين للبشر. ليس شكلهم الحقيقي ولا سبيل لبشري أن يراهم كما هم.

ما تراه هو تجسيد لما يُفزعها ليس إلا.

- لا أريد عهدك. اخرج من هنا قبل أن أؤذيك.

ظل جبر يحدق فيها بعينيه الغائرتين، يحرك وجهه يُمنه ويسره ويبتسم. حامل الرمح لا يزال راكعًا مُستندًا إلى رمحه.

أخرجت ماري عصاها من كُمها، وهي عصا على شكل كوكبة الطائر، ترصعها جواهر مُطلسمة تُمثل نجوم الكوكبة، ومنقوش عليها بالأمازيغية

عبارة «ابنة الأوراس».

- جبر.. للمرة الأخيرة، آمرك أن تتخلى عن تجسدك الدنيء، وتعود إلى أعماق الظلام ولا تعود إليّ مُجددًا.

- جبر لا يؤمر يا صغيرة.

لم ترد ماري، فقط حركت حزامها خلف خصرها قليلًا، فصدرت عن عصاها موجات طاقية متلاحقة اهتز على إثرها البيت البسيط، وتغيرت المناظر بالخارج إلى صور ضبابية مُضيئة تتحرك بسرعة شديدة.

تبعثر تجسد جبر وتذبذب، وظهر أصله كدخان حالك يجاهد كي يتماسك قبل أن يتفتت عنه الجسد المرعب. بعد ثوانٍ، عاد ما يحيط المنزل إلى الظهور مرة أخرى، وفي الداخل، ظهر ثلاثة من جن بني دهمان.

وأدرك جبر من زوال تجسده أن ماري نقلت بيتها إلى بُعد طاقي. عالم الجان.

ابتسمت ماري، وراحت تدور حول الكيان الأسود المُحاط بأسوارٍ من نار خضراء بلا حرارة وهي تقول:

- الآن يا جبر. ما رأيك؟ في عالم الجان، تتحرر طاقاتي السحرية، ويضعف تجسدك المادي والطاقي معًا. أنت حبيس هنا بعد أن فهم رفيقك حامل الرمح ما يحدث وفر هاربًا إلى عالمكم العفن.

تحرك جبر في المساحة الضيقة التي تحيطه، لكنه لم يقدر على تجاوز النيران الخضراء. مال أحد الجان على أذن ماري وهمس شيئًا، فهزت رأسها وقالت:

- الآن، سنبادلك بأسير من الجان عند الشياطين. ولنرَ قيمتك الحقيقة لديهم.

تعرف ماري -وقد ذكرها رفيقها الجني- أن حبس الشياطين في عالم الجان حل غير عملي، فطاقة الشياطين أعلى، وهو أمر يستلزم جهدًا

مستمرًا من الجن كي يحافظوا على الزنزانة النارية. كان عليهم أن يُبادلوا ما يأسرون من الشياطين سريعًا، وإما يطلقونهم في العالم المادي ليعودوا من حيث أتوا.

لكن الشيطان مامون، أحد الملوك السبعة للجحيم، وافق على مبادلة جبر بأسير من أمراء الجان، ولم يبدُ أن جبر سعيد بهذه المُبادلة. جبر يعمل لحسابه وقد انكشف أمره. جبر متمرد.. طموح..

ذو الرمح كذلك، خائن..

حاول جبر التجسد في هيئته الآدمية مرة أخرى، فتبلبل الواقفين، ففعل كهذا سيسحب الطاقة من كل شيء حولهم، ويُضعف الزنزانة.

سألت ماري في قلق:

- ماذا نفعل؟ ماذا لو فر؟

- سنستدعي الباقين، حاولي أن تفككي ترابطه مع الجسد المادي.

فهمت ماري على الفور ما سيحدث، وأخرجت كرة معدنية صغيرة من نطاقها ملفوف عليها سلاسل ذهبية، وراحت تحركها وهي تنشد بمخارج حروف غريبة.

تكاد ترى نظرة التحدي والابتسامة الساخرة في عيني جبر قبل أن يتفكك ترابطه مع الجسد المادي، فقط ليعود بعد حين ويسحب الطاقة مرة أخرى.

لهذا السبب يشعر البشر ببرودة مفاجئة حين يتجسد شيطان بالقرب منهم.

ترى ماري النيران الخضراء تخفت، والهرج يسود بين صفوف الجان.

لقد أخطأت تقييم قوة جبر، فهو طموح لأنه قوي بالفعل..

في النهاية، تهاوت ماري من فرط البرودة، ونجح جبر في التجسد في

عالم الجان. رغم محاولات الجميع المستميتة لحبسه لوقتٍ أطول، أو تقييده في جسده البشري لتقل قوته، لكنه تخلى عن التجسد في لحظة واختفى.

خسرت ماري في معركتها الأولى ضد شيطان واحد، وكان عليها أن تعي جيدًا خطر ما تواجه، وأن تفهم حدود قدراتها السحرية الطبيعية دون استعانة بشياطين.

هذه معلومات هامة حرصت ماري على أن تذكرها بل وتدونها في مخطوطاتها.

***

الشياطين ستعلم من جبر بشأن ماري وقوتها. وعليها أن تكوّن عصبة Covenant، وهي خطوة يقدم عليها أغلب السحرة كي يستطيعوا مواجهة أعدائهم من الأجناس والمخلوقات الأخرى.

جرى العرف أن تكوّن الساحرة عصبة من الساحرات النساء، لكن ماري رأت هذا عُرفًا لا قانونًا. ماذا يمنعها من أن تنتقي من تشاء من السحرة الذين يتناسبون مع قوة أعدائها؟

مَن من السحرة التي قرأت عنهم وقرأت دماءهم يستطيعون أن يساعدوها؟ راجعت ملاحظاتها ولم تجد أفضل من ساحر واحدٍ فقط.

هاجوب لاجين..

لكن أين هو الآن، وهل هو حي؟

مهمة البحث عنه لم تكن صعبة بالنسبة لماري، لكنها احتاجت إلى شهور من الاعتكاف داخل مجال رصد مغارة دانيال حتى وجدته في الأقصر بمصر.

الفصل الثالث

٢٠٠٦ ميلاديًا

جنوب سيوة.

قالت ديهيا بصوتها الخشن الخفيض:

- كان عليّ أن أرتحل إلى مصر، إلى حيث رأيت مكان هاجوب لاجين، جدك. له قصة طويلة هو الآخر تخص الحروب الصليبية وما وجده من أسرار معهم، وفي جنوب مصر خاصة. لا أعرف أين مخطوطاته، لكنني أرجح أنها لا زالت في الأقصر هذا هو المكان الذي أحبه لاجين وإليه انتمى حتى مماته.

- كيف مات؟

- لا أدري، ليس لي معرفة بالماضي.. لكنني عرفت أنه مات بعد وفاته بأعوام عن طريق حليف من النورانيين. كنت وقتها منشغلة بإقامة مملكتي هذه. لاجين كان رجلًا غريبًا، أشقر، ضخمًا، فخيم الصوت والهيئة، وكان منيعًا فطريًا ضد الشياطين. لا يمكن أن يتلبسه شيطان أو يؤثر فيه، كما كانت له قدرة على التصرف مثل الشياطين تمامًا.. يمكنه الاختفاء ثم الانتقال من مكان لمكان، يمكنه التداوي بالدماء البشرية، بل واستطعنا معًا ابتكار الطريقة التي رأيتها في كهف الملح لفتح أنفاق عبور الشياطين دون كتاب عهد، وهذا ما جعلنا قادرين على حبس أسرى الشياطين في عالم البشر بأمان، وساعدنا في التحالف مع الجان لأسر أعدائهم عندنا كما رأيت. أدين له بالكثير مما بنيت عليه أسس مملكتي، وإن قبلت أن ترثني، فأنت سترث أيضًا ما صنعه جدك الأكبر في مملكتي.

الأمور تتعقد أكثر، لكن فيما قالته مخرج. أوراق جدي الأكبر في الأقصر.. علمه الذي يفوق فيما يبدو علم ديهيا، أو على الأقل يمثل الأساس الذي بنت عليه مملكتها وقوتها وتحالفاتها. لكن هل سأجده؟ هل أجد في ما ترك أبي أي إشارة له؟ أغلب كتبه مكتوبة بحروف عربية لكنني لا أفهم منها

شيئًا. اللعنة على التشفير السحري. لكنني سأجد مخرجًا..

سأجد مخرجًا..

- أقدر عرضك الكريم يا سيدتي وإجابتك عن كل ما دار بخلدي. امنحيني يومًا آخر، وسأرد عليكِ.

- على الرحب يا ولدي.. على الرحب.. أنا مسرورة أنك عرفت من أنا، وأود لو تعرف عني ما لم أحكه لك أيضًا، لكن لهذا شرط تعرفه.

- أن أكون وريثك.

- أجل.

***

بلا أوراق أو أقلام أو حواسيب أو شخص أثق به، جلست في حديقة أعلى القصر أرتب أفكاري كي أستطيع التصرف.

أولًا: ديهيا بشرية ذات قدرات خارقة. تعرف بعض لمحات من المستقبل دون تحكم منها. تعرف ما يفعله بعض الأشخاص في الحاضر، إن ركزّت قدراتها معهم، وقد ظهر هذا فيما حكته لي. والأهم، هي لا تعرف الماضي بدقة.

ثانيًا: لو أن ديهيا امرأة خيّرة، فلها وجهة نظرها التي أحترمها، لكنني لا أتفق معها. لن أضع يدي في يد الشياطين مهما حدث لأنني بكل صراحة، أخاف أن أنزلق إلى شركهم وأصبح واحدًا منهم. هذه هي نقطة من نقاط ضعفي الكثيرة التي تؤلمني، لكنها تحافظ على بشريتي. لا يمكنني وضع يدي في يد ديهيا بالشكل الذي تريده.

ثالثا: يبدو أنني لو وافقت على أن أرثها، فلديها طريقة تجبرني بها على إتباع كل ما خططت له. هي ليست ابنة البارحة كي تُسلمني ملكها لأقتلها ثم أغير كل شيء.

رابعًا: ثمة مغارات لتطوير السحرة، لا يستلزم الالتحاق بها التعاون مع

الشياطين. هذا هدف مهم بالنسبة لي وأنا أعرف بالتقريب مكان واحدة منها.

خامسًا: لو أن عصا ديهيا تحمل عبارة «ابنة الأوراس»، فلا بد أن أبي قد صقل مواهبة السحرية هنا، فعصاه تحمل عبارة «ابن ديهيا». ديهيا صنعت مدرستها المُستقلة ومنهجها الخاص إذًا بمساعدة جدي الأكبر.

سادسًا: أين مخطوطات جدي الأكبر؟ هدف آخر مهم للغاية.

الخلاصة، لست بحاجة إلى الموافقة على عرض ديهيا مقابل أن أتعلم. البديل هو أن أبدأ من البداية كأي ساحر آخر، وأنا قادر على أن أجد طريقي وسط كل هذا.

الآن، هل أرفض عرضها وأخرج وحدي، أم أن الأطفال بالفعل في خطر؟

في عقلي خطة تختمر، تعتمد على صدق استنتاجي، ودقة ما صرحت لي به ديهيا. لكن يجب أن أجرب كل شيء كي لا أندم لاحقًا.

***

تمشيتُ في أرجاء القصر بشكل عادي، لكنني كنت أحفظ ممراته في عقلي، وأبحث عن مكان عمل الرجال السيويين البشريين.

في سيري توقفت عند شرفة واسعة، وقفت أنظر إلى سماء النهار حينًا، ثم –وكأنها حركة عفوية- رميت حجرًا صغيرًا من أصص الزرع المتراصة هناك. قذفته بعيدًا نحو حدود الرمال غريبة الشكل، فاختفى في الهواء.

مثَّلت أنني غاضب ورحت أقذف الأحجار يُمنة ويسرة وأتظاهر بالحيرة، ثم عدت إلى الداخل وأنا أفكر، ترى هل عبر الحجر بسلام إلى الجهة الأخرى أم تفتت؟ أم وصل إلى بُعد آخر؟

سألت شياطيني بم يشعرون، فأجابوا:

- ماذا تفعل يا آدم؟ ما تنتوي؟

- كل خير. لا تقلقوا.. هل تشعرون بوجود بشر بالقرب من هنا؟

- بالأسفل نهاية الممر.

- وهل تشعرون بوجود بشر خلف حاجز الرصد؟

- لا نشعر بشيء، لا يمكن أن نعرف ما خلف حاجز الرصد. إلامَ تخطط يا آدم؟

لم أجب، وتوجهت إلى حيث شعرت شياطيني بالبشر، وتصاعدت مع اقترابي منهم رائحة الطبخ وحرارة الأفران.

تسللت إلى المطبخ الواسع المزدحم، فبدأ القوم في الشعور بالقلق والخوف وهم بعد غير مُدركين للسبب. فتراجعت وقد عرفت ما أردت معرفته عن المكان ومن فيه.

لو أردت أن أهرب بالأطفال عليّ أن أخيف العاملين من البشر في المطبخ لأخرجهم منه، ثم أفجر أنابيب البوتوجاز فيه، لأخلق ما يشغل الجميع عن هربي. عدت أدراجي أبحث عن مهدي، حتى وجدته عند السُلم، سألته:

- مهدي..

- آدم.. هل تريد شيئًا؟

- كنت جائعًا، وبحث عن المطبخ، لكن حين وصلت وجدت أن الطباخين قد خافوا مني، فعدت أدراجي. هلا وجدت من يحضر لي الطعام؟

- بالتأكيد.. بالتأكيد..

ثم وقف مكانه مُترددًا لحظات قبل أن يصعد مُلبيًا طلبي.

عُدت إلى القاعة التي بها أحواض الدم، فلم أجد أحدًا. تصنعت النظر في المكان بشكل عفوي، ثم عدت أسير في الطرقات إلى حيث أشارت الطفلة رضوى، إلى مسكن الأطفال.

لكنني وجدت في نهاية المكان حائطًا بلا أبواب. أين ذهبت الطفلة إذًا؟

هل هناك باب سري أو سحري؟

شعرت بالغضب الحقيقي أمام عجزي عن الوصول للأطفال فضلًا عن تهريبهم. قصدت حجرتي مرة أخرى في الجهة المقابلة عبر قاعة الأحواض الحجرية، فهمست لي شياطيني:

- آدم.. ذو الرمح هنا.

تقدم مني الشيطان وراح يدور حولي، ثم أشار برمحه لشيء خلفي. ألتفّ، لأجده مهدي. نظرت نحو ذي الرمح، فوجده لا يزال مصممًا على الإشارة نحو مهدي، ثم بلا اكتراث تراجع نحو الحائط وغاص في الظلال مختفيًا.

- مهدي؟ أخبرتهم بما أريد؟

- لا وقت يا آدم.. قُل لي، ماذا قررت؟

- بشأن؟

- قبولك لعرض ديهيا.

- لا أعرف بعد.

- ديهيا لا تراقبنا الآن، لا تقلق. لقد تعلمت كيف أهرب من ملاحقتها من وقت لآخر. هي لا تستطيع أن ترانا جميعًا في نفس الوقت. تعالَ.

أمسك كوعي وسار بي سريعًا عبر الطرقات حتى وصلنا بوابة حديدية قديمة، فتحها بمفتاحٍ أعتقد أنه مفتاح نسخة عن مفتاح ديهيا، ثم نزل بي إلى قبو شاسع عطن الرائحة كأنما هو..

- هذه هي مدافن أبناء ديهيا. هذا المكان مُشيد منذ أكثر من خمسمائة عام، وعاش هنا أجيال، منهم من تعلَم وتخرَج وعاد إلى عالم البشر، ومنهم من مات وهو يحاول. آدم.. قصر ديهيا ليس الأوراس، فالأوراسيون كيانات قديمة حكيمة، وديهيا مجرد امرأة أشجع وأذكى من غيرها. السحرة هنا يموتون أحيانًا وهم يتدربون ويتعلمون. بعضهم تقتله قدراته، وبعضهم يقتله مردة الجان أو الشياطين.. وأحيانًا ما يقتل السحرة بعضهم

بعضًا.. وهنا يُدفنون.

نظرت حولي إلى القبو الذي تنبت من أرضياته أعدادًا مهولة من شواهد القبور الحجرية وسألته:

- وكيف لا يقتل السحرة بعضهم البعض في الأوراس؟ أو تقتلهم قدراتهم؟

- الأوراس كيان حي، يستطيع تثبيط القدرات وحماية من فيه من بعضهم البعض. ديهيا فقدت قدراتها الخطرة في مغارة دانيال، ثم استعادها حين خرجت. لكنها عاجزة عن حمايتنا من بعضنا و.. ومنها.

- مهدي.. ماذا تعني؟

- رأيتك مُترددًا يا آدم في قبول عرضها الذي يغري أعتى الرجال، فتوسمت فيك الخير. لا تقبل هذا العرض يا آدم، لأنك لو قبلت فلن تستطيع تغيير أي شيء أوسته ديهيا حتى لو قتلتها. لن تستطيع تحرير الأطفال أو نقض معاهداتنا مع الشياطين.

- هل أخبرتك أنني أريد تحرير الأطفال؟

- لم تخبرني بهذا، أو بنبوءتها بشأنك لو أنك تساءلت عن هذا الأمر أيضًا. لكنني أعرف. من يحيا وسط السحرة يتعلم كيف يؤمن نفسه. لقد عشت كذلك يا آدم أعوامًا أنا وزوجتي في الشارع، وفيها تعلمت أكثر مما تعلمت هنا. تعلمت كيف أتعامل مع البشر، أما الجان والشياطين، فهم لا يُقارنون ببني آدم أبدًا.

- حسنًا.. أنا لا أريد أن أؤذي ديهيا. ولا أريد لأحد أن يؤذى.. فقط أريد تحرير الأطفال والخروج من هنا.

- ولو قلت لك أنك لو حررتهم، ستعيدهم هي، أو ستجد غيرهم؟ لا مفر يا آدم.. لا مفر.. انج بنفسك. أنا أدخلتك في الرصد وأستطيع أن أخرجك منه. ما قولك؟

ترددت في الإجابة، فأنا لا أعرف إن كان في مقدوري الوثوق به أم لا.

لكنني أعرف أن في مصلحته تهريبي، فكيف آتي أنا وأصبح وريث ديهيا بينما هو الأحق بالفعل من أي شخص آخر؟ لم يكن ليتردد في قتلي، لكنه شهد كل تجارب قتلي الفاشلة.

لا سبيل سوى أن أهرب.

- متى أهرب؟

- اليوم، خلال ساعة على الأكثر.. أنت تعرف أنني نصف جني، ولي صلة مع الجن مصممي الرصد والمتحكمين فيه، وأعرف كيف يعمل كل شيء. أترك هذا الأمر لي، فقط اختبئ هنا، وسأبقي ديهيا مُشتتة حتى أعود إليك.. بعد ساعة أو أقل.

صعد مهدي الدرجات، واختفى أعلاها. لا أعرف سبب إخفائه لي هنا بالذات. هل المكان محصن ضد عرافة ديهيا؟ أم أنه فقط أراد أن يُريني خطورة المكوث في مكان كهذا؟

تمشيت وسط شواهد القبور الخالية من أي كتابات، لكن بعض الأعراض كانت مغروسة وسط الإسمنت الذي يغطي سطح كل قبر. عصا ساحر على هيئة كائن بحري لا أتبينه جيدًا، خاتم ذو فص لامع، جديلة من شعرٍ أبيض، عصا على هيئة تنين تشبه عصاي، لكن النقش الأمازيغي عليها مختلف.

أخرجت عصاي من تحت ملابسي وقارنتها بها. الكلمة الأولى واحدة، أما الثانية فمختلفة، مع اختلاف تصميم التنين الذي كان أفضل بكثير من عصاي.

فهمت لماذا جاء بي مهدي إلى هنا..

هذا قبر جدي الأكبر، هاجوب لاجين، والذي أنكرت ديهيا معرفتها بموته أو سببه.

السحرة يقتلون بعضهم البعض، أليس كذلك؟

ركعت جوار القبر ورحت أحاول إخراج عصا جدي بطرف عصاي حتى حررتها. خلعت قميصي ودسستها جوار عصاي، وأحكمت رباطهما، وارتديت ملابسي ثم توجهت إلى جوار الدرجات أنتظر مهدي في براءة.

سمعت خطوات تهبط السُلم..

ديهيا..

ومن خلفها مهدي يغلق الباب الحديدي وينتظرها عند أول السُلم. تقدمت مني وهي ترفع طرف عباءتها وتقول في حزن:

- آدم لاشين؟ ماذا تفعل هنا؟

- أتعلم يا سيدتي.

- أجل.. تتعلم العلم المحرم، هه؟ قلت أنك لن تخُونني.. وأعلم أنك ستقتلني في النهاية، لكنني لا أعرف كيف ستصل إلى هذه النقطة. أنا لا أحب الحياة يا بُني، لكنني أهاب الموت، ولن ألقي نفسي في أحضانه هباء، ولأجل شخص لا يؤمن بي ولا بقضيتي.

ثم هدر صوتها وتردد وسط القبو:

- لن أكون مثل ديهيا الأمازيغية.. هل تفهم؟ مهدي.. أرسله إلى حيث أمثاله، فربما نبادله بأحد حلفائنا. مامون سيود الاحتفاظ بك يا آدم في خزانة إنجازاته.

لا أعرف لماذا لم يُفاجئني ما حدث. لم أشعر بشيء قط حتى ومهدي يُجردني من عصاي وعصا جدي. لم أشعر بشيء وهو يضع حول رقبتي طوقًا من أشواك النخيل ويقيد يدي خلف ظهري. تألمت وتألمت شياطيني، لكن قلبي لم يشعر بشيء.

لم تواتني حتى الرغبة في أن أسأله لماذا خانني. سيكون هذا سؤال غبي للغاية، فلو نجح في تهريبي، ستُعيدني ديهيا. كان عليه أن يُسقطني تمامًا من حساباتها.

بدأ غضب سخيف يشتعل في صدري تجاه بطء تفكيري، وانشغالي في مشاهدة القبور اللعينة. هذا هو السبب الذي دفع مهدي لإحضاري إلى هنا بالذات، قرب قبر جدي.

التشتيت.. أحسنت يا مهدي.. أحسنت.

كلما تعمقنا في القبو، اشتدت الرائحة الخبيثة، حتى أنني تقيأت قبل أن أصل إلى زنزانتي، التي أدخلني فيها مهدي مع ثلاثة خنازير ضخمة موشومة بالنار وتحيط رقابها الغليظة أحزمة الشوك.

هكذا رأيتهم في رؤيتي..

قال مهدي قبل أن يرحل:

- لسنا أعداءً يا آدم. لكنني أحق بأن أرث ديهيا. أعرف أنها أخبرتك أنني سفاح، لكنني لا أقتل إلا نوعًا واحدًا من البشر. ربما نتقابل مرة أخرى فأحكي لك.

- لا يهمني أن أعرف.

- لن أسلمك إلى مامون، فقط أحتاج أن أزيحك عن طريقي لبعض الوقت حتى أتصرف مع ديهيا. بعدها أعدك بشرف.. بشرف الجان، سأحررك. وأنا أعرف أنك لن تُعاديني.

تركني وأغلق من خلفه باب الزنزانة الضيقة. الخنازير الثلاثة ترمقني، وأسمع ما يقولون بلغة الشياطين..

«ما هذا؟»

«من هذا؟»

«ليس شيطانًا..»

«ليس بشريًا..»

- من أنت؟

أجبتهم وأنا أغالب ابتسامة بركن فمي:

- أنا آدم. أعرف أنكم أسرى. أمراء وقادة شياطين.

سمعت واحدًا منهم يسألني:

- وما أنت؟ شيطان؟ إنسي ممسوس؟

- أنا نصف شيطان.. مِسخ. لذا تكرهني ديهيا وأسرتني كما ترون.

صمت الثلاثة، وراحوا يُخنخِنون ويرفسون ويمضغون القمامة المُلقاة أمامهم. هذه القيود تُخضعهم وتجعلهم أقرب للخنازير الحقيقية إلا من لحظات وعي متفرقة.

دققت النظر في تفاصيل الوسوم على جلودهم، وحفظت أشكالها جيدًا ومواضعها. ثم رُحت أكلم نفسي بصوت عال:

- لو أنني أخرج من هنا.. لن أتركك يا ديهيا، فالنبوءة التي رأيتِها أنني سأقتلك.. سأقتلك أيتها الساحرة البشرية اللعينة، وسأعتلي عرشك وأعيد للشياطين ما سلبته منهم.

نظرت بجانب عيني نحو الكائنات الثلاث وقد توقفوا عن الأكل، وراحوا ينظرون لي. تقدم مني الخنزير الرمادي وسألني:

- هل هناك نبوءة أنك ستقتل ديهيا؟

- هل أنت غبي؟ تراها قد أسرتني محبة فيّ؟ ابتعد عني ودعني أفكر في مهرب.

عاد لي شعور النشوة التي أشعر بها كلما مارست شيطنتي، كلما أفزعت أعدائي، كلما وسوست لأحد..

إلهي.. لا مفر أمامي سوى هذا. لن أنتظر أن يفي مهدي بوعده، لن أنتظر

مساعدة من أحد.

ظل الخنزير يحوم حولي، وأنا أسمع أفكاره مع زملاءه.

«عدو ديهيا حليفنا..»

«لم نسمع من قبل عن نصف شيطان..»

«لم نسمع، لكننا نرى الآن.. هذا لحم بشري، وروح شيطانية.»

«هل هذا الجسد صالح ل...؟؟»

«أعتقد هذا..»

سألني الخنزير الرمادي بصوته المقزز:

- آدم.. شاركنا التفكير لنخرج جميعًا. أنا قائدة جيوش وأستطيع أن أضع جيشنا تحت أمرك.

- وما المقابل؟

- أن تساعدنا على الهرب. نهرب سويًا.

- هل لديك أفكار؟

- نحن محبوسون في هذه الأجساد، لو تحررنا منها بمعجزة ما، فسنذوى في عالم البشر هذا ما لم نجد جسدًا ماديًا نسكنه حتى نجد بوابة نعود منها إلى عالمنا.

- دعوني أفكر.. لا تستنتوني..

- آدم.. لديك جسد بشري، يمكنك أن تُسكننا فيها ولو لأيام حتى نجد بوابة نعود منها. لا نريد جسدك هذا، نريد أن نعود إلى عالمنا. سأكون مدينة لك بخدمة. ما رأيك؟

- وكيف أضمن أنك ستفين بوعدك وتتركين جسدي؟ وكيف أضمن خدمتكم هذه.

- وكيف أضمن أنا أنك لن تخوننا؟

- أنت غبية.. هذا رأيي فيك. كيف أخونكم؟ هه؟ هيا.. ابتعدي..

لكنها لم تبتعد. الإغراء أقوى منهم. وهم لا يرون حقًا كيف يمكنني خداعهم في الأساس. لا سبيل ولا سبب للخيانة.

قال لي الخنزير الأسود من مكانه وهو يزدرد القمامة ويخمخم:

- أنا أخبرك كيف نخرج. جسدك البشري يمكنك من انتزاع الأطواق من حول رقابنا، ويمكننا قضم الحبل الذي يقيدك. يبقى الوشم الذي يربطنا بهذا الجسد المادي. كيف نتخلص منه؟

اعتدلت في جلستي على الأرض وأنا أنظر إليهم وأقول:

- كلوه.. اقضموا الوشم وانزعوه عن أجساد الحيوان. بسيطة.

ضحك الخنازير الثلاثة فسرت قشعريرة في جسدي. رغم كل شيء، فآدميتي لا تحتمل أصواتهم ولا ضحكاتهم.

لاقى اقتراحي استحسانهم، فتقدم مني الخنزير الأسود وراح يقضم الحبل من خلف ظهري، ولعابة النجس يسيل على كفي. انتزعت الطوق عن رقبتي فصرخت، وشعرت بالوهن الذي أصاب شياطيني منه.

اقتربت ببطء نحو الخنازير ومزقت أطواقهم وأنا أحبس صرخاتي، ثم ارتميت أرضًا أشاهدهم وهم يأكلون أجساد بعضهم البعض فتتمزق الأختام وتتساقط الدماء على الأرض.

كان منظرًا دمويًا لكنه أثلج صدري. الإهانة التي لحقت بهم في هذه الهيئة أسعدتني، وأسعدت شياطيني، فالشياطين جميعًا أعداء مهما تحالفوا.

حين انتهوا من إزالة الوشوم، وقفوا على قوائمهم الخلفية وبدأوا في إطلاق طاقتهم كي يتفككوا عن الجسد المادي، بينما أنا أرسم الرمز على

جبيني بدماء الخنازير، وأتمدد على الأرض.

قد أموت هذه المرة.. قد يتمزق جسدي.. لكن هذه هي بوابة الخروج الوحيدة، ولا أعرف إلى أين تفضي.

***

فتحت عيني بعد ظلمة استمرت دقائق. فالدم على الأرض لم يتجلط بالكامل. صمت رهيب يعم نفسي، لا أثر لشياطيني، لكن ثمة خواء يأكلني من الداخل.

خواء مفزع..

ثم دوى صوتها في عقلي.. الشيطانة القائدة..

- ما أنت؟؟ كيف حدث هذا؟ أين أنا؟؟

- لقد صرنا واحدًا.. وأنا آدم لاشين.. ما اسمك؟

- كيف صرنا واحدًا؟ كل ما أعرفه أننا دخلنا جسدك، ووجدنا شياطين من العبيد بالداخل ذائبة في خلاياك. جسدك كان يتهاوى ولا يتحمل ثلاثتنا، كنا نشفيه ونتناحر.. نشفيه ونتقاتل، ثم..

- انتصرت أنت، ففنت طاقة الجميع في جسدي، وقريبًا ستفقدين كينونتك وستصيرين أنا. ما اسمك؟

- أريد أن أخرج من هنا.. أنت خدعتنا!

- لنخرج من هنا أولا ثم نتناقش..

- اللعنة عليك يا آدم لاشين! اللعنة!

أشعر بقوة جديدة تسري في جسدي.. بمجرد أن أفكر فيما فعله الشياطين كي يتحرروا من أجساد الخنازير، أجد نفسي قادرًا على إطلاق الطاقة بداخلي، لكنني لم أغادر جسدي المادي، بل يتفتت جسدي ذاته إلى ذرات دقيقة عبرت حائط الزنزانة إلى الساحة الخلفية في الخارج في أقل

من ثانية، ثم عدت أسحب الطاقة من حولي فتهبط درجة الحرارة، وأتكون من جديد.

ابتسمت.. عرفت إجابة تساؤلاتي القديمة حول التهام شياطين أكبر. جسدي قادر على هضم طاقتها.. قادر على استخدامها. ها هي قدرة للشياطين قرأت عنها في الكتب؛ التحلل. الاختفاء. التجسد. ترى ما حدودها معي وأنا لست شيطانا بالكامل؟

المشكلة الوحيدة هي أن مملكة ديهيا محصنة ضد دخول الشياطين، فهل سأكون قادرا على الخروج منها؟

الأهم، أين ديهيا؟ هل لا زالت تتابعني أما أن تشتيت مهدي لا يزال قائمة؟

قررت أن أحاول الاختفاء ثم التجسد عند الأطفال، لكنني لا أعرف أين أنا بالنسبة لهم، فلا أعرف أين أتجسد. المشكلة الأكبر تكمن في أنني ما عدت أهتم بهم حقًا.

ما جدوى إنقاذهم إن كانت ديهيا ستعيدهم؟

ما وقع تغيري الجديد عليهم؟ بالتأكيد سيفرون مني.

لا بد أن أنجو بنفسي أولا قبل أي شيء، وبعدها يمكنني العودة وأنا أقوى وأغلق كل تلك الأبواب التي تركتها خلفي.

صوت داخلي ضعيف يهمس بي:

- حقًا ستتركهم لأنهم يخافونك؟ لأن لا جدوى من المحاولة؟

أخرست نفسي، وعدوت نحو حدود الرمال الغريبة. إلا أن دخانًا أسودا انبثق كحائط من تحت الأرض صدني، ورماني بعيدًا أصرخ وتصرخ الشياطين الذائبة في. لم أعد أسمع أصواتهم، لكنني أتألم بدلا منهم.. أتألم كأنني شيطان.

الراصود ينفض الرمال عن جسده وينتصب كالكوبرا. يفح الدخان الأسود

تجاهي كي أبتعد، وأعود إلى الداخل.

لا مجال للهرب من هنا..

اللعنة..

اللعنة!!

زحت أفكر بسرعة فيما عساي افعل. لقد اسقط في يدي. كل ما أمله ان ينجح مهدي فيما يخطط له، وأن يفي بوعده في أن يُحررني.

لكني أكلت أسراه! تبا!

من بعيد رأيتها تنزل الدرجات الخارجية نحوي..

ديهيا رأتني..

هل فشل مهدي، أم أنني وقعت في فخٍ داخل فخ؟

اقتربت ديهيا مني، ففكّت جزيئاتي لأختفي، وقبل أن أختفي كلية سمعتها تصرخ:

- انتظر! لست هي!

تجسدت مرة أخرى في مكاني، وتراجعت إلى الخلف تحسبا، فرأيت ديهيا تذوب كالدخان، لتظهر موراخيا بشعرها الغجري وابتسامتها المشاكسة.

- موراخيا؟؟

- هاك.. عصاك والعصي الأخرى..

سألتها في حيرة:

- لا أفهم؟

- من تظنه كان جاسوس مهدي؟ أنا بالطبع. لكنني لا أعمل لديه، بل أعمل لنفسي..

أردفت وهي تضحك:

- أحيانًا ما كنت أحضر الاجتماعات بدلًا منه.. وكان هو يخطط لما هو أكثر. ديهيا عاجزة عن تتبعي لأنها لا تعرف شكلي الحقيقي، ولا تتبع مهدي لأنها تظنني هو.

- كيف حصلتِ على العصي؟

- أعطانيها مهدي وهو يظنني ديهيا! لنتحدث لاحقًا.. المهم، نحن في نفس المعسكر، لا تستطيع الهرب بدوني، ولا أستطيع الهرب بدونك.

- تريدين الهرب؟

- سأحكى لك .. وستحكى لى .. لكن اسمعنى

* * * * *

الفصل الأخير

نعدو في طرقات القصر، أفكر في كل كلمة قالتها في طريقنا. أنا عاجز عن اتخاذ قرار، لكنني لن أتورع عن هدم المعبد فوق رؤوس الجميع في اي لحظة.

- مهدي مشغول مع الجان في إجراء تغييرات تشبه تلك التي في مغارة دانيال، ستمنع ديهيا عن قدرتها على التنبؤ وتحد من قدراتها السحرية الأخرى. لا أعرف متى ينتهي، لكنني أتنكر في هيئة كرات طاقية مثل التي يستخدمونها وأتجسس. أعرف ما في نفس مهدي. ولا يعرف ما في نفسي.

حين اقتربنا من القاعة الكبرى، وعرش ديهيا، أمسكت بي موراخيا كأنما تقيدني بقيد من أشواك، وهتفت بأداء عبقري وهي تغير شكلها إلى مهدي:

- أمي ديهيا.. لقد فر مجددًا وأعتقد أنه قد هرّب الأسرى. لا أجد لهم أثرًا. لننفه في بعد آخر، فقد زادت قوته بشكل لا يصدق. هو قادر على الاختفاء

والتجسد كالشياطين.

رفعت ديهيا نظرها نحوي ببطء ووهن، وقالت:

- ماذا فعلت أيها التعس؟

- ما كنتِ لتتركيني أرحل، أليس كذلك؟

ضحكت ديهيا بشكل مفاجئ، ضحكت وراحت ترتفع في الهواء، ويتجعد جلدها ليظهر سنها الحقيقي.. شعرها يطول ليصل إلى الأرض. أشعر بموراخيا ترتجف جواري، لكنني لم أخف. فقط أتساءل، ماذا يحدث.

- بالطبع لن ترحل يا آدم لاجين.. أراك قد أدركت أنني من قتلت جدك بعد أن تزوجني، وأنجب مني ستة أطفال، ثم انقلب عليّ ببساطة وقرر الرحيل معهم. استطاع اللعين أن يهرب الستة وأن يضع عليهم طلسمًا بحيث لا أجدهم أبدًا. وتظن أنني سأتركك؟ أنت ابني، من دمي.. هل فهمت؟

مفاجئة أخرى لم تزدني إلا نفورًا منها.

- أنت ابن ديهيا الأوراسية.. ولن أتركك ترحل، لكن كم أود لو بقيت بإرادتك.. لو صرت لي ابنًا.. لو ورثت كل ما ضحيت بآدميتي من أجله. أنا وأنت مثيلان.. ضحينا بأنفسنا في صراع الشياطين هذا. أرى أنك الآن أقوى، أرى أنك صرت للشيطان أقرب. تذكّر نبوءتي.. استسلم يا آدم.. لا مفر.

قالت موراخيا بصوت مهدي في نفاد صبر:

- وما أدراك أنه لن يجلس على عرشك ليقصيك ويفعل ما بدا له؟

- لن يفعل إلا ما أراد هو. ألم تدرك بعد أن هدفنا واحد؟ ولا طريق لك إلا ما سلكته أنا من قبلك؟

اقتربت منا ديهيا وهي تعود إلى هيئتها، وتبهرني بتعبيرات وجها

الأمومي:

- ورثت عني مصيري يا بني.. ورثت اللعنة والطريق.. رأيتك في المستقبل، وأي قرار ستتخذه سيؤدي بك إلى عرش إبليس.

قالت موراخيا:

- لنؤدبه يا أمي قليلًا. هاتي طلسمك فأنفيه إلى بعدٍ آخر حتى تنفذ تلك الطاقة الشيطانية التي فيه.

فكّت ديهيا حزامها، ومدت يدها إلى موراخيا به، فأخذته الأخيرة وهي تدفعني أمامها بغلظة كما اتفقنا. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

دخل مهدي القاعة مع رجل من الجن، وما أن رفع عينيه ورآني ورأى نفسه، حتى عقد حاجبيه في مفاجأة.

- موراخيا؟!

أمسكت موراخيا بذراعي وصاحت:

- اختفِ الآن.

فككت جزيئاتي، وكل ما يتصل بجسدي من ملابس وبالطبع من أشخاص. يقولون أن هذه هي الطريقة التي يخطف بها الشياطين الأطفال من فرشهم.

تجسدنا عند الرمال مختلفة الشكل مرة أخرى. ركعت موراخيا أرضًا وثبتت الحزام ديهيا على الأرض، وهي تقول:

- رأيتها كثيرًا وهي تُعيد حجر الفلاسفة من البعد الخامس الذي تخبئه فيه، ورأيت مهدي يستخدمه لإزالة الرصد على المبنى بالكامل.

- أنت تزيلين الرصد بالكامل؟

- بالطبع! وإلا فلن نخرج. الراصود لا يطيع إلا الزهوريون.

أسمع خطوات تقترب منا، وفرقعات عالية مدوية، ويتجسد رجال من النورانيين حولنا.. يرموننا بصواعق تشبه الكهرباء.

يظهر مهدي من خلف الجميع وهو يصرخ:

- أخي! اسمعني رجاء!

تصيح موراخيا، ويدور الحزام حول نفسه:

- زال الرصد. انتقل بنا إلى أي مكان بعيدا عن هنا..

تتفتت جزيئاتنا، تنتقل، تتجسد، وأسمع صوت مهدي من بعيد:

- لا تثق بها يا أحمق!

*****

تعقيب

لا زلت حيا، وهذا يعني أن موراخيا لم تقتلني.

تجسدنا يومها في شقتي في القاهرة، وارتمينا على الأرض أرمقها في شك، وترمقني في دلال وخبث.

- لقد فعلناها!

- احكي لي الآن كل شيء.

- أين نحن؟ماذا تريد أن تعرف؟

- الجيزة.. احكي

- لا يمكنك أن ترغمني على شيء. لكن مهدي صادق. ما كان لك أن تثق بي..

ضحكت وعدت نحو باب الشقة تفتحه، لكنه بالطبع كان موصدا بالمفتاح. مددت يدي أقبض على ذراعها، فتملصت ولكمتني في أنفي، تبعتها بركلة

في قصبة ساقي، ثم غدت نحو النافذة ووقفت تنظر خلالها ثوان، وقبل أن أصل إليها كانت قد قفزت ونزلت إلى الشارع على هيئة قطة رمادية، واختفت وسط المارة والسيارات.

بعد أعوام قابلت مهدي في الأقصر، وكان قد قتل لتوه واحدا من السحرة الذين يخطفون الزهوريين ليفتحوا بدمائهم المقابر الأثرية.

سأحكي لكم ما حدث بالتفصيل في كتاب آخر، لكننا كنا ليلًا، ودماء الساحر تقطر من خنجره، بينما عالية تحتضن الطفل الزهوري وتذهب به إلى سيارة تقف على مقربة.

قال لي مهدي وهو يمسح سلاحه في منديل أبيض:

- أخي آدم.. بالتأكيد تعرف سحرة فرعون، أولئك الذين يسحرون أعين الناس. موراخيا منهم.. من أخطر أنواع السحرة الطبيعيين. هي لا تستعين بجان أو شياطين، فقط لديها الموهبة، ولديها الشر الذي يجعلها من أخطر المخلوقات في العالم.

- وأنت خنت ديهيا، وهذا يجعلك أفضل منها؟

- لم أخن ديهيا قط. لا أنكر أنني شعرت بغيرة منك وبأحقية للعرش. وصدقًا كنت سأهربك، لكنني أردت وقتًا وأردتها أن تثق في أكثر. بالطبع كنت أستغل مواهب موراخيا في حضور مجالس ديهيا بدلًا مني، بينما أتعلم أنا، وأتحرك بحرية أكبر. كذبت على موراخيا وأوهمتها أننا سنفر معًا، لذا رضيت بالقيام بدوري وبالتجسس على ديهيا.

- حتى أتيت أنا؟

- قدومك غير كل شيء يا أخي. لقد سئمت هي من مماطلتي في الرحيل، وعرفت أن وجودك يثير غيرتي وأنني عاجز عن قتلك وإن أردت. خططت معها للتخلص منك في السجن، وقد شتت ديهيا حتى استطعت أنا أن أرسلك إلى زنزانة الشياطين. لكنها لم تكن تعلم أنني كنت سأحررك لاحقًا.

- ولماذا ستحررني؟

- لأنني لا أريدك في الجوار! لا أريدك أن ترث عرش ديهيا.. حتى أنني صنعت لك شيئًا لم أجد الوقت لأعطه لك.

أعطاني ساعة من نوعية فاخرة، لكنها عقاربها وأرقامها ووزنها مختلف للغاية. أردف مهدي:

- ساعة من صنعة الجان، تستطيع أن تحيطك برصد لمدة أربع وعشرين ساعة متصلة كل تسع وعشرين يومًا أو أكثر. ظننتها ستساعدك في الاختفاء عن ديهيا إن قررت مطاردتك. لم أعرف بالطبع وقتها أنك قادر على الاختفاء والتجسد في مكان آخر. ماذا تفعل يا آدم كي تمتلك هذه القدرات؟

- آكل الشياطين.. عيب خلقي وراثي.. جينات أجدادي..

ضحكنا، وأخذت منه الساعة. أكمل حكايته وهو يصب الكيروسين فوق جثة الساحر ويضرم فيها النار:

- موراخيا ظنت أنني سأحبسك في الزنزانة إلى الأبد، فقررت ان تساعدك في الهرب وتهرب معك. لم تكن لتستطيع أن تمثل دوري ودورك في نفس الوقت كي تخدع يديها وتأخذ حزامها.

- إذن هي كذبت علي بشأن مخططتك لتقييد قدرات ديهيا.

- بالتأكيد. لا زالت ديهيا على عرشها حتى اليوم. لن أمسها بسوء، لكن حين تموت، ساقتل كل من يقترب من عرشها.

- هذا حقك تمامًا. ارحل أنت، وسأخفي جثة الساحر بعد أن تحترق. لا تقلق.

ابتسم مهدي، وركب السيارة جوار زوجته والطفل. سألته قبل أن يرحل:

- لدي سؤالان آخران.

- لا تشبع من الأسئلة. اسأل يا أخي.

- الأول، لماذا أعطتني موراخيا عصا أبي وجدي؟

- لأنني أعطيتهما لها وقد ظننت أنها ديهيا. وكنت سآخذهما منها لاحقاقبل أن ترحل. لا تستطيع موراخيا ولا اي شخص آخر استخدامهما. فهما ملك لك بالوراثة وبالدم. أنا من أردتك أن تحصل عليهما على أيه حال، وأن تعرف مكان مدفن جدك.

- وأين موراخيا؟

- لا أعرف. لا يعرف أحد.. لكنها مصدر خطر على الجميع يا أخي. احذر، فقد تكون أي شخص، حتى أنا.

ضحك مهدي للمرة الأخيرة وودعني، وابتسمت عالية في وجهي فلم أشعر بأي شيء نحوها مما شعرت به حين رأيتها أول مرة.

وقفت أشاهد جثة الساحر وهي تحترق، وتذوى..

كما تذوى روحى الادمية شيئا فشيئا حتى تذروها الرياح ..

تمت

العدد القادم

خلف قسم اللبان